أوراق باحث

إصدارات تعنى بالقضية الفلسطينية
والصراع مع المشروع الصهيوني

الحرب النفسية الإسرائيلية:

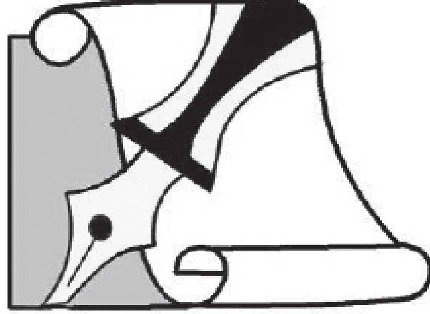
حقائق وأوهام



باحث للدراسات
الفلسطينية والاستراتيجية

أوراق باحث

الحرب النفسية الإسرائيلية:
حقائق وأوهام



بيروت- لبنان

تلفاكس: 01/843882

هاتف: 01/842882

النسخة الإلكترونية

www.bahethcenter.net

information@bahethcenter.net

isdarat@bahethcenter.net

www.neelwafurat.com

الحرب النفسية الإسرائيلية: حقائق وأوهام

ندى الشقيفي المريني

إصدار مركز باحث للدراسات الفلسطينية والاستراتيجية

فهرس المحتويات

مقدّمة:

منذ نشوء كيانها الغاصب في قلب الأمّة العربية والإسلامية، ارتكزت إسرائيل -وما زالت- على استراتيجية شنّ حروبٍ عسكرية- توسّعية ضدّ دول المنطقة، بهدف خلق ما يُسمّى بـ"إسرائيل الكبرى". وبالتوازي مع هذه الحروب، سلكت الحكومات الصهيونية المتعاقبة نهج الحرب النفسية، لما لهذه الحرب من أثرٍ فاعلٍ على الصعيدين الداخلي والخارجي، قد يُسهِم في إنجاح الاستراتيجية الصهيونية الاقتصادية والسياسية والعسكرية. وعلى الرّغم من أن "إسرائيل" بنت استراتيجيتها في شنّ حربها النفسية ضدّ العرب والمسلمين على مقولاتٍ وأكاذيب هدفت فقط إلى تضليل الرأي العام العالمي والعربي، فقد حدّدت الصهيونية العالمية دوافع حربها النفسية، بالارتكاز على مزاعم عدّة، منها:

"الحقّ التاريخي لليهود في العودة إلى أرض الأجداد"، وتهمة "العداء للسامية"، وأن اليهود تعرّضوا تاريخياً إلى شتّى أنواع التعذيب والاضطهاد، وأنهم يمثّلون جيل "الصابرا"، باعتباره الجيل الجديد الذي ولِد على أرض فلسطين، وله كامل الحقّ في الأرض التي ولِد عليها؛ إضافة إلى زعمها -أي إسرائيل- بأنها الدولة الديموقراطية الوحيدة في قلب الوطن العربي

"المتخلّف"، وأن "الحضارة التي تمثّلها تجعلها في جبهةٍ متقدّمةٍ لحماية حضارة أوروبا المتفوّقة"!

في الإطار ذاته، تصوّر "دولة" العدوّ نفسها على أنها القوّة العسكرية الأضخم في المنطقة (لبثّ روح اليأس عند العرب والمسلمين)، وأنها صاحبة الصناعات الحربية المتقدّمة تكنولوجياً، وأن آلة حربها هي الأفضل والأقوى دائماً. وكلّنا نذكر نظرية "الجندي الذي لا يُقهر" (لكنّه قُهِر في لبنان عام 2000، وفي حرب تموز عام 2006). كما تسعى هذه "الدولة المارقة" للإيحاء (وهذا أيضاً من ضمن وسائل حربها النفسية) بأنها وصلت إلى حدٍ لا بأس به من إنهاء المقاطعة الاقتصادية العربية لها، لإيهامنا بأنها تمكّنت من إقامة قاعدة تسويقٍ ضخمةٍ لمنتجاتها، وأن الاقتصاد الإسرائيلي قادرٌ على إبقاء "إسرائيل" في قلب العالم!

وقبل الولوج في حقيقة ما ذكرناه، من المهمّ أن ندرك ماهيّة الحرب النفسية كمصطلحٍ أو كتعريفٍ أوّلاً.

تعريف الحرب النفسية:

لم يصل خبراء الإعلام والدعاية إلى اتفاقٍ موحّدٍ حول تعريف "الحرب النفسية". إلاّ أنهم أجمعوا على أنها أفضل الأسلحة التي تتحارب فيها الدول فيما بينها.

وقد أطلق عليها الإعلاميون مصطلحاتٍ وتسمياتٍ كثيرة، منها: حرب الكلمة، حرب الدعاية، حرب الأعصاب، حرب الإشاعات، وما إلى ذلك. لكن، ظلّت الأكثر شيوعاً التسمية ذاتها؛ الحرب النفسية" أو غسل الدماغ؛ الحرب الباردة أو الحرب السياسية.

أما الأخصّائيون في علم النفس، فقد عرّفوا الحرب النفسية على أنها الاستخدام المدبّر لفعاليّاتٍ معيّنةٍ مُعدّةٍ للتأثير على آراء وسلوك مجموعةٍ من البشر، بهدف تغيير طريقة تفكيرهم. وهي تشمل بمعناها الواسع استخدام علم النفس لخدمة الهدف بأساليب: الإشاعة، المناورة، السياسة، الدعاية والمقاطعة الاقتصادية. ولعلّ ما عرّفه "بول ليناغر" -وهو أحد الروّاد الذين كتبوا في مجال الحرب النفسية- هو وصفٌ جامعٌ شاملٌ للتعريفات السابقة، حيث قال "أنها استخدام الدعاية ضدّ العدوّ مع إجراءاتٍ عمليةٍ أخرى ذات طبيعةٍ عسكريةٍ أو اقتصاديةٍ أو سياسية، بما تتطلّبه الدعاية ... إنها تطبيقٌ لبعض أجزاء علم النفس لمعاونة المجهودات التي تُبذل في المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية".

يقول القائد العسكري الفرنسي نابليون بونابرت: "إنني أرهب صرير القلم أكثر من دويّ المدافع".

أما مناحيم بيغين (رئيس وزراء سابق في الكيان الصهيوني)، فيقول: يجب أن نعمل، ولنعمل بسرعةٍ قبل أن يستفيق العرب من سُباتهم، فيطّلعوا على وسائلنا الدعائية. فإذا استفاقوا، ووقعت بأيديهم تلك الوسائل، وعرفوا دعامتها وأسسها، فعندئذٍ سوف لا تفيدنا مساعدات أميركا وتأييد بريطانيا وصداقة ألمانيا.... عندئذٍ، سوف نقف أمام العرب وجهاً لوجه مجرّدين من أفضل أسلحتنا".

أهداف وأقسام الحرب النفسية

يحدّد البروفسور "رغيار زاكروس"، الذي كان يشغل رئاسة الحرب النفسية في بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية، أهمّ أهداف هذه الحرب بالتالي:

- تحطيم قِيم وأخلاقيّات الشعب الذي توجّه إليه هكذا حرب.
- إجراء عملية غسل دماغٍ له عبر دروسٍ جديدةٍ تُعطى ليؤمن بها.
- إرباك معتقداته الفكرية ونظريته السياسية.
- زيادة شقّة الخلاف بين الشعوب وحكوماتها.
- غرس بذور الفتنة بين أبناء الشعب الواحد.

ومن أهداف الحرب النفسية أو الحرب الناعمة، أيضاً:

- تثبيط معنويات العدوّ وكفاءته القتالية.
- احتلال مدن العدوّ عن طريق توزيع الإنذارات.
- تأكيد العقوبات الاقتصادية التي تفرضها الدولة على العدوّ.
- بثّ روح الكراهية داخل دولة العدوّ، وبخاصّةٍ العناصر المضطّهدة.
- تقديم المعلومات والتوجيهات اللازمة للعناصر الصديقة التي تعمل داخل منطقة العدوّ.

وقد قسّم عددٌ من الباحثين الحرب النفسية إلى: تعبوية، سوقيّة، ومعزّزة للمعنويات؛ وهي تتوجّه نحو السكّان المدنيين لضمان الحصول على تعاونهم.

أما أساليبها، فهي:

أ- الدعاية، ومن خلالها يتمّ تثبيط العزائم وفق أهداف الحرب، أو مناصرة قضيةٍ ما ... وما إلى ذلك.

ب- الإشاعة، وتتضمّن: إشاعة الخوف، إشاعة الأمل، وإشاعة الحقد. وهذا الأسلوب يسري فقط في جسد الشعب الضعيف الإرادة.

ج- الضغوط الاقتصادية، كالحصار ومنع وصول الأطعمة والمواد الغذائية أو الضرورية، ممّا يؤدّي إلى الجوع؛ وقد يخلق أزماتٍ نفسيةٍ وحالات نقمةٍ متزايدة.

هذا هو إطار الحرب النفسية بشكلٍ عام. أما إذا أردنا فهم حقيقة الحرب النفسية التي تمارسها دولة العدوّ اتجاه العرب والفلسطينيين تحديداً، فلا بدّ من التعمّق أكثر في طبيعة هذا الكيان، والتعرّف على أسسه ونظرياته الأيديولوجية.

وبداية، لا بدّ أن نفهم الأسس النظرية والفكرية الإسرائيلية التي قامت عليها حروب الكيان النفسية.

الأسس النظرية والفكرية للحرب النفسية الإسرائيلية:

ليس وحده القلق الوجوديّ هو الذي أسّس لنظرية هذه الحرب. بل هناك معطياتٌ كثيرةٌ متداخلةٌ بعضها ببعض، كانت وقوداً نافعة للإيديولوجية الكيانية الصهيونية في نارها المستعرة ضدّ العرب والمسلمين.

وربّما يمكن القول أن الصهاينة عملوا على مسارين في هذا المجال: داخلي ذاتي يعني اليهود، وآخر خارجي يعني المحيط الإقليمي والدولي. ومن أجل فهمٍ أوسع لهذه اللعبة، سنحاول نبش خفاياها، بدءاً من الداخل الصهيوني وصولاً إلى قلب المنطقة العربية والإسلامية.

عامل الخوف

هو عاملٌ داخليٌ تغذّيه سلطات الاحتلال بسلسلة أحداثٍ لتكريس شعور "اليهودي" الدائم بالملاحقة والاضطهاد من قِبل الآخرين، مما يعزّز فرضية الخوف على الوجود والاستشراس للدفاع عن هذا الوجود.

وفي الأدبيات، يُشار إلى هذا الشعور بجنون الارتياب والاضطهاد اليهودي (Jewish)، أو عقدة "مسّادا" المستقاة من أسطورة (مسّادا) قبيل الميلاد، والتي تصف ملاحقة اليهود من جهة، وتمجّد "صمودهم" من جهةٍ أخرى؛ وهي تحمّل اليهود مسوؤلية قتل المسيح، وبالتالي "إضطهادهم" في أوروبا ومحاولة تصفيتهم من قِبل النازية -حسب الأسطورة-. يقول علماء النفس حول شخصية اليهودي "أنه يبالغ في الخوف ويواصله إلى ما بعد انتهاء الأحداث"!

وقد استغلّت الصهيونية العالمية ما أشيع عن "المحرقة" التي حلّت باليهود على أيدي النازيين، لإقناع هؤلاء بالهجرة إلى فلسطين، وإقناع العالم بضرورة تأمين وطنٍ لهؤلاء يحميهم من الاضطهاد. غير أن هذا الرأي مغلوط. فالمعروف أن الصهيونية ظهرت أو نشأت قبل عدّة عقودٍ من ظهور النازية؛ فكيف إذاً تكون النازية سبباً لوجود المشروع الصهيوني؟

والحقيقة أن الصهيونية استعملت "الشعب" اليهودي، فقط لتحقيق مشروعها العنصري الذي جاء خدمة لفئاتٍ محدّدةٍ من هذا الشعب. وقد أثبتت معطيات عدّة الاتهام المباشر للحركة الصهيونية التي أدارت ظهرها لليهود في ألمانيا وأوروبا، ووجّهت كلّ طاقاتها وأموالها لإنجاز مشروع الاستيطان والاستيلاء على أراضي فلسطين. ومن هذه المعطيات:

يقول ناحوم غولدمان، رئيس الكونغرس اليهودي العالمي، في صحيفة (دافار) في عددها الصادر في نيسان 1964:"لا شكّ أن التاريخ سيحكم على جيل الكارثة الذي عاش في بلادٍ حرّةٍ بأنه مُذنب، وسيتّهمه بأنه لم يتصدّ لمحاولات الإبادة. لا شكّ لديّ بأنه كان بإمكاننا إنقاذ عشرات الألوف، لكنّنا لم نفعل".

وفي مقالةٍ للكاتبة "ليز ليفيدو" نشِرت على شبكة الإنترنت (Levidow ،1998 June)، تصف كيف تعاونت الحركة الصهيونية مع "اللاّساميين" في أوروبا الغربية لتهجير اليهود إلى "إسرائيل"، وكيف تماهت هذه الحركة مع اليهودي الأوروبي الغربي؛ أي اليهودي الذي عاش في أوروبا الغربية، وقمعت الهويات الثقافية ليهود أوروبا الشرقية وليهود الدول العربية، بهدف خلق هوية "اليهودي الجديد".

وتقتبس الكاتبة تصريحات لـ"بن غوريون" و"حاييم فيتسمان" وغيرهما، ممّن أبدوا استياءهم من اليهود الشرقيين، وعبّروا عن تحقيرهم لثقافتهم. وتؤكّد الكاتبة أن تشجيع هؤلاء على الهجرة إلى فلسطين المحتلّة تمّ فقط بعد جفاف هجرة يهود أوروبا في بداية العام 1950، عندما ألقوا بهم في مستوطناتٍ خطرةٍ على الحدود وشغّلوهم بأعمالٍ رخيصة.

هذه الاقتباسات تدحض الأهداف المعلنة للحركة الصهيونية، وتشير إلى حقيقة أنه كان من مصلحة الصهيونية تطوير "البارانويا"، لإقناع "اليهود" والعالم بوجود (لاسامية) تهدف إلى تصفية اليهود؛ وذلك لترويج مشروعها الاستيطاني العنصري في فلسطين.

البارانويا اليهودية

تصبّ هذه السياسة في الوعي واللاّوعي الإنساني. والبارانويا هي مرضٌ نفسيٌ يتميّز بنسب نوايا عدوانيةٍ للآخر، تجعل المريض يخاف ويحذر من الآخرين، معتقداً أنهم يتآمرون عليه ويلاحقونه لأنه الأفضل!

ويعتمد المريض على أحداثٍ حصلت ضدّه، ولكنّه يحمّلها معانٍ أكثر ممّا تحتمل، ويعتبرها أدلّة على صحّة أوهامه، دون وجود أيّ علاقةٍ سببيةٍ بينها وبين أوهامه.

تُعتبر البارانويا تُعتبر آليّة نفسية غير واعيةٍ تتضمّن إسقاط عدوانية المريض على الآخر من جهة، ورفع ثقته واعتزازه بنفسه من جهةٍ أخرى. وهي تصل إلى الجمهور العادي، بحيث يخلق الجمهور (والأفراد) البارانويا بشكلٍ غير

واعٍ لمآرب عدّة:

أ- تبرير أعمال غير إنسانية (مثل قتل الفلسطينيين)، "فنحن نقتلهم لأنهم ينوون قتل اليهود "حسب تعبيرهم".

ب- الحفاظ على الصورة الإيجابية للذات وعلى الإعتزاز بالنفس رغم الفشل.

ج- التمسّك بدور الضحيّة؛ وهذه مصلحةٌ صهيونيةٌ يُستقطب من خلالها الرأي العام لدعم المشروع الصهيوني في المنطقة.

أما من يقف خلف حاجة "إسرائيل" للتمسّك بدور الضحيّة، فهو إلحاح الصحافة الإسرائيلية الاستحواذية على أن يعلن كلّ عربيٍ استنكاره لأيّ عملٍ يكون اليهود "ضحيّته".

وفي مقالٍ نُشِر في شبكة الإنترنت سنة 1999، بعنوان "Looking at the Land"، يوجّه الرابي "توبا سبنسر" نداء لليهود يدعوهم فيه للانتباه إلى كيفيّة تشوّه قِيمهم الإنسانية نتيجة تورّطهم وتمترسهم خلف دور الضحيّة، قائلاً: " نحن اليهود متعلّقون بفكرة أننا ضحيّة ... "إسرائيل" تملك أحد أقوى الجيوش في العالم، وتتمتّع بدعم أقوى أمّةٍ في الكون ... ومع ذلك، يبقى الخوف بأن كلّ هذا سيختفي كنفخة دخان".

ويتابع: في أميركا نتمتّع بدرجةٍ من الاندماج والقبول. ومع ذلك، نتعلّق لدرجة الانبهار بالكارثة "النازية" وبصورتنا الذاتية كضحيّة. اللاّسامية هي تشويه؛ ونحن قد تشرّبنا هذا التشويه؛ وهو يؤثّر على رؤيتنا الأشياء بوضوح".

وفي مقالةٍ أخرى للمؤرّخ "إيلان بابيه"، نشِرت في مجلّة دراسات الشرق الأوسط، يقول: "إن الإسرائيليين قد أسّسوا فكرة الشيطان العربي من جهة، وفكرة إسرائيل الضحيّة من جهةٍ ثانية. أمّا الاعتراف بأن الآخر الفلسطيني أو العربي هو الضحيّة، أو الاعتراف بما هو أصعب من ذلك بأن إسرائيل هي سبب نكبة الفلسطينيين، فهو أكثر ما يرعِب الإسرائيليين؛ لأن هذا الاعتراف يمسّ أسطورة "أرضٌ بدون شعب، لشعبٍ بدون أرض" في الصميم، وينسف الادّعاء الذي يترعرع عليه كلّ طفلٍ يهوديٍ بأن اليهود ضحيّة، وأن الصهيونية حركةٌ إنسانيّة، وبأن الفلسطيني شيطان. "إسرائيل" تخاف من فقدان دور الضحيّة أكثر من خوفها على بقائها، أو أنها تعتقد بأن دور الضحيّة يضمن لها بقاءها.

ويرجّح "بابيه" بأن وراء البارانويا اليهودية و"شيطنة" العربي يكمن شعورٌ غير واعٍ بالذنب. فمن يشعر بالذنب يخاف أن يُكشف أمره. ففي لاوعي اليهودي الإسرائيلي تكمن المعرفة بأن هناك شعباً قِتل وشرِّد وهجِّر من أرضه؛ وفي لاوعيه تكمن المعرفة أيضاً أن الفلسطيني لن يهدأ، وسوف يعود إلى أرضه وربّما للانتقام. يحاول اليهودي الإسرائيلي إنكار هذه المعرفة ومنع سيطرتها على وعيه، تحاشياً للخوف والشعور بالذنب الذي تثيره الحقيقة. لذلك، هو يجنّد لها الدفاعات النفسية التي تكوّن حالة البارانويا.

ومن المهمّ في هذا المجال، أن نذكر بعض الدفاعات النفسية التي يستخدمها الصهاينة، والتي تعمل في سلّةٍ واحدةٍ متكاملة.

الإنكار: هذه الدفاعية تجعل صاحبها يرفض إدراك أيّ حقيقةٍ تهزّ انسجامه

وتوازنه النفسي. ومن هنا، فهو يمسّ صميم التفكير المنطقي، بغضّ النظر عن مستوى ذكاء صاحبه، ويفسّر لنا كيف لا يرى "الإسرائيلي" التناقض بين السلام والاحتلال. فهو يطالب الفلسطيني بالسلام، ولا يدرك في تلك اللحظة أن هناك احتلالاً أصلاً، وبأنه لا يمكن تحقيق سلامٍ بوجود الاحتلال.

يشبه الإنكار دفاعية ثانية وهي الكبت، التي ينكر الشخص بواسطتها ليس الحقيقة الخارجية المرّة، بل حقيقة داخلية لا تنسجم مع صورة الشخص عن نفسه. فالأطفال مثلاً يكبتون غيرتهم من إخوتهم تحاشياً للشعور بالذنب. وبنفس الرّوح، يكبت الصهاينة نواياهم العدوانية وهم مقتنعون بإنسانيتهم ووطنيتهم.

أيضاً، هناك دفاعية ثالثة، وهي الإسقاط . أي إبعاد التّهمة عن الذات؛ وفي نفس الوقت، تبرير النوايا العدوانية ضدّ ذاك الآخر، وتبرير ممارستها بأن الطرف الآخر هو الشّرير.

"شيطنة العربي" هي تطبيقٌ حرفيٌ لدفاعية الإسقاط؛ إسقاط عدوانية الصهيونية على العربي لتثبيت إنكار العدوانية ونفيها عن "إسرائيل" من جهة، ولتبريرها ضدّ الفلسطينيين العزّل من جهةٍ أخرى.

ومن أجل تثبيت كلّ ذلك، تعمد وسائل الإعلام الصهيونية لتسخير اللغة في خدمة هذه الأغراض. فتسمية المقاوم "إرهابي" أو "مخرّب" إنما تُسقِط الشرّ على العربي من جهة؛ وتحول دون إيقاظ ضمير الإسرائيلي ضدّ الممارسات العدوانية الصهيونية من جهةٍ ثانية. ولا ننسى دفاعية التكوين

العكسي، وهي حاجةٌ لإظهار عكس الحقيقة. فالصهاينة يبالغون في إظهار عطفهم تجاه بعض المآسي التي تلمّ بشعبٍ منكوبٍ جرّاء زلزالٍ أو حدثٍ ما، فيرسلون دعماً إنسانياً وفرق إنقاذ؛ وذلك كلّه يصبّ في خانةٍ واحدة، ألا وهي النفي: النفي أمام أنفسهم لمواقفهم العنصرية وممارساتهم الاضطهادية.

القلق الوجوديّ

يلعب القلق الوجوديّ دوراً حاسماً في المسارات السياسية. وهو غالباً ما يدفع بأناسٍ للخروج إلى الحرب، ولو كان هدف هذه الحرب ونتائجها غير واضحين.

وقد عملت الصهيونية السياسية على هذا المحور في حربها النفسية الموجّهة نحو مواطنيها، وتبّنت شعور الخطر الوجودي كأساسٍ لشرعيّتها، مما أدّى إلى ارتفاع منسوب القلق الوجوديّ على كافّة الأصعدة.

وحتى في المجال الشعوري، كان تأثير أحاسيس الخوف والتوتّر السلبية أكبر من تأثير أحاسيس الحبّ والإخلاص والإيجابية. ففي إحدى الحفلات التي أقامتها جمعية "القدس واحد"، لم تكتفِ "شولي ناثان" بتأجيج الحبّ للقدس بواسطة أغنية "القدس الذهبية"، بل علّمت الجمعية على خلفيّة الأغنية محاكاة بأشعة (ليزر) لصواريخ تُطلق من شرقيّ القدس على غربيّها!

الشائعات

من أبرز الشائعات التي قامت عليها الحرب النفسية للعدوّ:

* الهولوكوست (المحرقة): حيث تُعرض صورها في معارض سنويةٍ حتّى

اليوم. وهي تُستغلّ في تفجير مشاعر الذنب تجاه اليهود، ولإحياء مشاعر الذّعر والهلع عند يهود العالم، بما يرسّخ فكرة أن "إسرائيل" هي الملاذ الآمن لهم ويجبرهم على دعمها.

* معادلة بن غوريون: هذه المعادلة أطلِقت عام النكبة 1948، عندما كان عدد سكّان "إسرائيل"، 700.000 نسمة وعدد السكّان العرب 28 مليون نسمة؛ فرأى بن غوريون أن الصهيونية انتصرت بنسبة يهوديٍ واحدٍ إلى أربعين عربياً...

وهذه المعادلة تتناغم مع أسطورة شعب الله المختار"، وتفوّق اليهود على الشعوب الأخرى". لذلك، راحت "إسرائيل" تبذل جهوداً مستميتة لتأمين هجرة اليهود من أرجاء العالم نحو الأراضي المحتلّة من أجل المحافظة على هذه المعادلة.

* شائعة "إسرائيل دولة عظمى"، تملك أقوى جيشٍ في المنطقة العربية، وهي لا تُقهر (وقد ثبت هزال هذه الشائعة عقب الاندحار الصهيوني عن لبنان عام 2000 وحرب تمّوز 2006 وعقب حرب غزة 2008).

* شائعة "أرضٌ بلا شعب، لشعبٍ بلا أرض"؛ وهي شائعة تلامس أسطورة "أرض الميعاد" أو "شعب الله المختار". لكنّ الوقائع تثبت أن اليهود كانوا يملكون 3.5% من الأرض عند صدور وعد بلفور عام 1917، و6.5% منها عند صدور قرار التقسيم عام 1946؛ ثمّ أصبحوا "يملكون" 93% في العام 1983. ويبيّن هذا التفاوت في النّسب حجم سرقة الأراضي العربية من أصحابها الفلسطينيين.

وقد نشر الكاتب والمؤرّخ "إسرائيل شاحاك" قائمة بأسماء 385 قرية فلسطينية تمّ جرفها من أصل 485 قرية كانت مسجّلة عام 1948. وهذا دليلٌ واضحٌ على التطهير العرقيّ الذي مارسته وتمارسه سلطات الاحتلال في محاولةٍ منها لتحويل هذه الشائعة إلى حقيقة.

غسيل المخّ

غسيل المخّ، أو (Washing Brain)، هو أسلوبٌ يُستخدم للتأثير على الناس لتغيير معتقداتهم الأولى وقبول معتقدات أخرى بديلة على أنها الحقيقة. وقد استخدِم هذا التعبير لأوّل مرّةٍ للإشارة إلى طرق التأثير التي مارستها الشيوعية الصينية، والتي سمّيت ببرامج إصلاح الفكر reform Throught، بعد أن تقلّدت الشيوعية زمام الأمور في الصين عام 1949. كما استخدمتها الصين وكوريا الشمالية أيضاً لتحويل الأسرى الأميركيين إلى شيوعيين. وتتلخّص معظم طرق Brain Washing في تكرار ذكر مساؤى الأنظمة المراد رفض الاعتقاد فيها للضحيّة، وذكر محاسن الأنظمة البديلة .. والضحيّة، تحت ضغطٍ نفسيٍ وعصبي، يمكن أن يستسلم في النهاية ويقبل بالتغيير . ولهذا، تلعب أساليب الدعاية المختلفة نفس أساليب وطرق غسيل المخّ. وغالباً ما يستعيد الضحية فكره الأصليّ بعد زوال المؤثّر الخارجي.

تقول الكاتبة الأمريكية "غريس هالل": تربّيتُ وترعرتُ على الإيمان بالديانة المسيحية. إننا كمسيحيين نؤمن بأن عمر الكون 6 آلاف سنة، وأن تاريخ الإنسانية سوف ينتهي بمعركة الآرماجدون التي سوف تتوّج بعودة المسيح، وأن اليهود هم شعب الله المختار، وأن الله قد أعطى الأرض المقدّسة إلى

شعبه المختار، وأن القوانين الوضعية لا تطبّق عليهم؛ فالقوانين التي يشرّعها الإنسان يمكن أن تطبّق على كلّ شعوب الأرض ما عدا بني إسرائيل...

و تضيف: "إذا كان الله يفضّل اليهود وليس الفلسطينيين؛ سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين، عندئذٍ على المسيح أن يجعل من الفلسطينيين كأنهم شيءٌ غير موجود؛ بل يعتبرهم مجرّد أحجارٍ في لعبة شطرنج إلهية" ... وتتابع:" إن المسيح لا يستطيع أن يعود ما لم تكن هناك إسرائيل ليعود إليها. وإنه عملٌ آثمٌ أمام الله أن يفكّر مسؤولون أمريكيون بوضع أيّة عمليةٍ للسلام يمكن أن تنتزع قدماً واحداً من الأرض التي منحها الله إلى الشعب الذي يملك أقدم حقّ ملكيّةٍ معروفٍ للإنسانية"!

والمدهش في الأمر، احتمال هذا الكمّ من الخرافات والتناقضات الفكرية، وتقبّلها كدينٍ فيه "سعادةٌ أبديةٌ منشودة". أما من يملك "أقدم حقّ ملكيّة"، فهم بلا شك ليسوا الصهاينة. فدولة فلسطين كانت موجودة باسمها الحالي حتّى من قبل زمان النبيّ إبراهيم (ع) بكثير، بدليل النصّ التوراتي [وتغرّب إبراهيم عن أرض فلسطين أياماً كثيرة]؛ أي أن فلسطين والفلسطينيين كانوا موجودين قبل أجداد إسرائيل، وقبل وجود "إسرائيل" ذاتها، كدولةٍ مغتصبة. ليس هذا فحسب، بل حتّى وقت خروج بني إسرائيل مع النبيّ موسى (ع) من مصر، حيث لم تكن "إسرائيل" قد تكوّنت بعد، كانت فلسطين لها نفس الإسم أيضاً، كما جاء في النصّ التوراتي: [حينئذٍ رنّم موسى وبنو إسرائيل هذه التسبيحة للربّ: الربّ رجل حرب؛ الربّ اسمه ... مركبات فرعون وجيشه ألقاهما في البحر. فغرق أفضل جنوده ... ترسل سخطك فيأكلهم

كالقشّ وبريح أنفك تراكمت المياه ... منْ مثلك بين الآلهة يا ربّ صانعاً عجائب ... يسمع الشعوب فيرتعدون. تأخذ الرّعدة سكّان فلسطين].

(الاختصار لا يخلّ بالمعنى ... تأخذ الرّعدة سكّان فلسطين: نصٌ يوحي بأن الفلسطينيين كان عندهم إحساسٌ خفيٌ بما يسوف يحلّ عليهم من خرابٍ وإبادةٍ على يد الصهاينة). ومن منظورٍ إحصائي، يأتي ذكر كلمتي فلسطين والفلسطينيين في العهد القديم من الكتاب المقدّس في (248) موقع؛ منها (10) مواقع في أسفار الشريعة (توراة موسى)، و(215) في الأسفار التاريخية، و(5) مواقع في الأسفار الشعرية (مزامير داوود)، و(18) موقعاً في أسفار الأنبياء.

وهذا كلّه يدحض ادّعاءات الصهاينة وسياساتهم التي تحاول إخفاء الحقيقة (غسيل المخّ). ففلسطين ليست موجودة منذ أيام إبراهيم (ع) وموسى (ع) فحسب؛ بل إن دولة "إسرائيل" لم يكن لها وجودٌ على الإطلاق في تلك الأيام.

التعليم الرسمي المشوّه لصورة العربي

لم ينج التعليم الرسمي من براثن القادة السياسيين في إدخاله ضمن سلسلة الحرب النفسية. فقد استخدم هذا المحور، منذ نشأته القريبة، الجيل الناشئ على حبّ الصهيونية وكره العرب. وقد صيغت أهداف التعليم الرسمية عن طريق قانون التعليم (1953) على ما يلي : إرساء التربية على قِيم الحضارة الإسرائيلية، وعلى الإنجازات العلمية، وعلى محبّة الوطن والإخلاص للدولة ولشعب إسرائيل، والوعي لذاكرة الكارثة والبطولة، والسعي لمجتمعٍ مبنيٍ على الحرّية والتعاون".

والأهداف المعلنة هذه، لم تتحدّث عن الأهداف الفردية الشخصية التي

تربّي المواطن كفردٍ واعٍ مستقل. لم يُذكر الهدف الإجتماعي إلاّ بشكلٍ ثانويٍ عندما قيل: السعي لمجتمعٍ مبنيٍ على مبادئ الحرّية والعدالة. كما أن البعد الإنساني والتربية على القِيم الإنسانية لم يرد ضمن هذه الأهداف!

أما البارز في أهداف التعليم، فكان تنشئة المواطنين على مبادئ وقِيم وأفكارٍ صهيونية. وقد ركّزت هذه الأهداف على البعدين الوطني والقومي ... على اعتزاز اليهود بتراثهم ... بحضارتهم ... بقوميتهم!

كما سعت هذه الأهداف إلى طمس هوية العربي في محاولةٍ لأسرلته. كما تجاهلت في الأساس وجود العرب في هذه البلاد، حيث لم يتمّ أيّ ذكرٍ لهم ولا لقوميتهم؛ وقد فرِضت هذه الأهداف على جميع مدارس المدن العبرية والعربية.

وبما أن كتب التدريس تلعب دوراً مهماً في تنشئة المجتمع، فقد جرى تذويب القيم والمعايير الصهيونية من خلالها. فعبر هذه الكتب كانت تُنقل الرسائل النفسية "غير المباشرة" من الحركة الصهيونية إلى الطّالب، وتشكّل مواقفه السياسية.

وقد حظيت كتب التاريخ بأهمّيةٍ خاصّةٍ في هذا المجال، حيث أن الطالب يتقبّل المؤرّخين كأناسٍ صادقين ينقلون الحقائق التاريخية. غير أن ما جرى كان عكس ذلك تماماً. فقد اشتملت تلك الكتب على رسائل أيديولوجيةٍ ركّزت على الذاكرة الجماعية؛ وباتت جميع الأسئلة المتعلّقة بالهوية والقومية بعيدة كلّ البعد عن الوقائع والحقائق السياسية. من هنا نفهم إلغاء "ليفنانت"

"Levnant" – وزيرة التعليم- كتاب "عالمٌ من التبدّلات" لمعدّه "داني يعقوب"، والصادر عام 1999. والحجّة كانت "بأنه يتضمّن نواقص خطيرة فيما يتعلّق بتاريخ شعب إسرائيل، ولا توجد فيه صورةٌ كافيةٌ للزعماء اليهود". وهكذا، من بين كتب التدريس المقرّرة، تمّ عبر هذه الكتب تزييف الماضي، والعمل على خلق انتماء، أو شعورٍ بالهويّة القومية الإسرائيلية. يقول "إيلي فودة"، في بحثه عن تأثير النزاع العربي-الإسرائيلي على المناهج الدراسية:" المهمّة الأساسية كانت أمام الدولة هي تشكيل وتكوين الذاكرة الجماعية للأمّة. وقد جُنِّد جهاز التربية والتعليم لهذه المهمّة، وأُلقِيت عليه مهمّة انتظار المواد التي على الطالب أن يتعلّمها، وتصفية كلّ ما يجب أن يُمحى من الذاكرة (أسلوب غسل المخّ). لقد تمّ تعليم التاريخ من خلال "العدسة القومية"؛ واستعمِلت الهنوريوغرافيا الصهيونية في أيدي الصهاينة لتبرهن على مدى صدق وعدالة الصهيونية في نزاعها ضدّ الحركة القومية العربية"!

وهكذا تمّ تزييف التاريخ والجغرافيا (وهذا عاملٌ نفسيٌ مهمّ جدّاً للأجيال الناشئة) من أجل تشكيل الذاكرة الجماعية لما يسمّى بالشعب اليهودي وإعطائه شرعية وجودية، ونسِجت حكاية تاريخية مغلوطة عمِّمت في جميع الكتب المدرسية. وفيما يلي عيّنات لهذا التزييف من كتب التاريخ التي تدرّس في الكيان العنصري حالياً:

في كتاب "تاريخ الشعب اليهودي"، وفي وصف للهجرة الأولى، يقول مؤلّفاه "أحياه وهاربنر": "عرف اليهود أنهم سيهاجرون إلى أرضٍ فارغةٍ وقاحلة، وأن السلطات تضايق اليهود وتقيّد خطواتهم، وأنهم محاطون بشعبٍ

وحشيٍ يعيش على النشل واللصوصية"- في إشارةٍ إلى الشعب الفلسطيني!

وفي كتبٍ أخرى، ذُكِر العرب كمجموعةٍ من الرّعاة واللصوص، بينما ذُكِر اليهود كأبطالٍ ومناضلين!

أما في الحديث عن الهجرة الثانية، فقد تطرّقت الكتب إلى وجود العربي بشكلٍ هامشي، بينما اليهودي "عاملٌ يهتمّ ببلاده وأرضه". وهكذا نجحت ألاعيب الحرب النفسية تربوياً، فغفلت عن سلب الأرض من أصحابها ومصادرة الأراضي، وتحويلها إلى أملاك دولةٍ وزِّعت على مستوطنين جلّب صدّقوا أنهم وصلوا إلى أرضٍ بلا شعب.

وما زال الطلاّب اليهود يتعلّمون حتّى اليوم في كتب "بابوريش" للجغرافيا التي تتحدّث عن أسطورة الأرض القاحلة، بعد أن جفّفوا مستنقعاتها، ممّا يثبت -حسب الصهاينة- بأن أرض فلسطين هي أرض صهيون، وأن لليهود الأحقّية في هذه الأرض، ويعطي الطالب الإسرائيلي إحساساً بالارتباط بـ "وطنه" والتمسّك به بعد رحلة "الشتات".

ولم تسلم كتب الأطفال من هذا التشويش الأعمى. ففي بحثٍ أجراه "أدير كوهين" عام 1988 في أدب الأطفال، عن صورة العربي، قال "العربي في هذه الكتب هو مخادع، غشّاش، سارق، لصّ، محبٌ للمال، بشع، قذر، متوحّش، جبان، جاهل، متعطّش للدماء، هدفه القتل وسفك الدماء اليهودية والاستيلاء على أرضهم وبيوتهم ومحو أيّ ذكرٍ لهم فوق الأرض"!

تجنيد الشبّان العرب

يُعتبر الجيش "الإسرائيلي" من المقدّسات بالنسبة لما يسمّى دولة "إسرائيل". وتعمل الحكومة على إخفاء أعداد المجنّدين، أو نسبهم، أو مدى تسلّحهم، أو حتّى حجم المساعدات التقنيّة والمالية التي يحصل عليها هذا الجيش من قِبل الولايات المتحدة الأمريكية أو الدول الأوروبية. لكن، في بعض الأحيان، يتمّ تسريب معلومات ضئيلة حول ذلك، والتي تتلقّفها وسائل الإعلام المحلّية والخارجية.

وفي الفترة الأخيرة، تسرّبت بعض الأخبار عبر العديد من الصحف الورقية والإلكترونية حول انضمام أو تطوّع عددٍ من الشباب العرب من جنسياتٍ متعدّدةٍ في صفوف جيش العدوّ؛ ومنهم جزائريون وأردنيون وعراقيون وسودانيون ومصريون ومغاربة وتونسيون!

ويأتي هذا التطوّر في إطار برنامجٍ يدعى سير-إل. وهو ينظّم برامج تدريبية للشباب، ويتحمّل نفقات التدريب. وينضمّ إليه كثيرٌ من اليهود والمسيحيين الذين تعرّضوا لـ"غسيل الدماغ"، أو ما يُعرف "Washing Brain"، عبر وسائل الإعلان والدعاية الصهيونيين، والذين يؤمنون بخرافتي "أرض الميعاد" و"شعب الله المختار".

وقد أنشِئت الجمعية المعنيّة بهذا التدريب عام 1982، على يد الجنرال "أهارون ديفيد". وهي تمكّنت من جذب أكثر من 8 آلاف متطوّعٍ من 30 بلداً؛ وأغلبهم من الولايات المتحدة الأمريكية. ويخدم غالبية هؤلاء المتطوّعين في

الأماكن غير القتالية، كالعمل في الشحن وتوزيع البضائع وسوق الشاحنات في المصانع الحربية. ويمثّل الأمريكيون 90% منهم، على الرّغم من أن القانون الأميركي يمنع مواطنيه من المشاركة أو الانضمام لجيوش بلدانٍ أخرى.

ويبدو خبر تطوّع بعض الشبّان العرب في جيش العدوّ أمراً مستهجناً، على اعتبار أن هذا الجيش تابعٌ لدولةٍ عدوّة، ويجرَّم التعامل معها بتهمة الخيانة العظمى. ولكن، ما هي حقيقة هذه القضية، وما هي الدوافع التي أدّت بهؤلاء إلى التحوّل نحو "إسرائيل"؟ هل تغيّرت صورة "إسرائيل" في أذهان هؤلاء الشباب العرب المسلمين، أم ماذا؟!

لا أحد ينكر وجود هذه الظاهرة، التي ترجع لأسبابٍ شتّى: قد تكون بحثاً عن وظيفة، أو سخطاً على وطنٍ لم يؤمّن لشبابه فرص عمل، أو سعياً لرفاهٍ اقتصادي؛ فتكون "الهجرة إلى "إسرائيل" نوعاً من الانتقام لوطنٍ سلب هذا الشاب حقّه في عيشٍ كريم.

وقد مهّدت الدعاية الإسرائيلية لهذه الخديعة، حيث روّجت لـ" واحة الديموقراطية والعيش المرفّه والسلام الرّاقي"؛ إضافة إلى نشرها بطرقٍ غير مباشرةٍ لعلاقاتها السرّية مع بعض قادة الدول العربية التي تعلن مقاطعتها لـ "إسرائيل"؛ ممّا يكرّس حالة عدم الثقة بين الجماهير والقادة، ويجعل الفرد يؤمن بحتميّة انتهاء الصراع والتكيّف مع التطبيع "الإسرائيلي" المفروض!

في مقابل ذلك، حصل تراجعٌ في تنمية ثقافة الصراع ضدّ كيان العدوّ داخل بعض الدول العربية، مع تغليب منطق ضرورة التطبيع وإقامة اتفاقيات "سلامٍ" معه!

وإذا كان كلّ ما سلف لا يبرّر مطلقاً الإقدام على التطوّع في جيش العدوّ، إلاّ أن هذه الظاهرة موجودة، ولكنّها ليست بالصورة التي تشيعها وسائل الحرب النفسية "الإسرائيلية"، والتي تستفيد من كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ في حربها المفتوحة ضدّ العرب والمسلمين.

وللأسف، فإن بعض الصحف العربية، ولو عن غير عمد، قد تلقّفت هذا الخبر من صحف العدوّ، وعملت على نشره ووضعه في الصفحات الأولى لأعدادها. فكان أن وقعت في الفخّ "الإسرائيلي"، وأصبحت أداة في إدارة الحرب النفسية الصهيونية.

لكنّ هذه الظاهرة التطوّعية تظلّ محدودة، وهي لا تضمّ سوى فئاتٍ قليلة من النفوس الضعيفة التي تقبل الخيانة، إن في أوطانها أو في "إسرائيل". وهؤلاء "المتطوّعون" ليسوا من أوطان عربيةٍ عديدة، كما يُشاع؛ بل إن أغلبيتهم الساحقة تتشكّل من البدو في الجليل والنقب. وقد أقام الجيش الصهيوني كتيبة خاصّة لهم سمّاها "كتيبة التجوال الصحراوية". كما يخدم الكثير منهم في وحدة "قصّاصي الأثر".

وتفيد الحقائق، التي تستر عوراتها وسائل إعلام العدوّ، أن سبب الحاجة إلى جمعيّات، كالتي سلف ذكرها، هو الانخفاض القياسي في التجنيد في صفوف جيش العدوّ، وذلك لإنخفاض معدّلات الولادة وتدنّي هجرة الشباب إلى الكيان؛ إضافة إلى رغبة الكثيرين في التهرّب من الخدمة العسكرية.

وتشير الإحصاءات الرسمية إلى أن نسبة عدد الشبّان الذين لم يلتحقوا

بالخدمة الإلزامية عام 2007 بلغت 25%، بينما بلغت في العام 2009 حوالي 31%.

والأهمّ من كلّ ذلك، هو دحض إشاعة أن هؤلاء المتطوّعين يتميزون بالتنوّع العربي (أي من بلدان عربية مختلفة). فكما أشرنا، هؤلاء هم فقط من جماعات البدو التي تسعى إلى حياةٍ مترفة، والتي تأثّرت بدعاية إعلام العدوّ. غير أن هؤلاء لا بدّ وأن يعودوا إلى أصولهم عند اكتشافهم لحقيقة الكيان الغاصب، مع ندمٍ كبير -حيث لا ينفع الندم! وفي هذا، نذكر ما جرى للمتعاملين اللبنانيين مع الصهاينة في جيش أنطوان لحد، وكيف مورست تجاههم أساليب التمييز العنصري داخل "إسرائيل"، عندما هربوا إلى هناك بعد انتصار المقاومة عام 2000 في لبنان، وكيف رجعوا سيراً على الأقدام إلى الوطن، مفضّلين السجن على العيش داخل كيان العدوّ.

وقبل ختام هذه الفقرة، لا بدّ من ذكر أن هناك كماً هائلاً من الأحرار الذين يرفضون التعامل مع العدوّ، رغم كلّ الضغوط التي يمارسها العدوّ عليهم. وكلّنا نذكر الفنّان وسيم نايف خير (28 عاماً) من قرية البقيعة، الذي تمرّد على الاحتلال وتحمّل عذاباتٍ شتّى من سجنٍ وضربٍ وإهانات، لرفضه التجنّد في الجيش "الإسرائيلي" الإرهابي. وقد صدرت بحقّه أحكام تعسّفية جائرة.

تلميع صورة اليهودي

من الداخل نتّجه خارجاً، حيث ركّزت الحرب النفسية للحركة الصهيونية على تلميع صورة اليهودي أوّلاً، في محاولةٍ منها لإخراجه من قمقمه الضيّق.

يقول الباحثان الإسرائيليان "تامارين وبن تسافي"، في دراسةٍ نفسيةٍ قاما بها عام 1969 حول شخصية اليهودي الشتاتي: هو إنسانٌ أحدب ونحيف، ذو نظرةٍ غريبة، ضعيفٌ ومتمارض، عيناه عصبيّتان، له ضفائر سوداء وذقن، شاحبٌ وتبتدى عليه بسرعة علائم الشيخوخة والتجاعيد والرّعشة، يرتدي ملابس أوروبية باهتة وبالية، وعلى رأسه قبّعة أو طاقيّة".

أما من حيث الشخصية، فهو منغلقٌ وغريبٌ في كلّ مكان. يستولي عليه الخوف والشكّ، يبتعد عن مخالطة الناس، ثقيل الحركة ويفتقر إلى اليقظة والنشاط، ليس له تقديرٌ لذاته، منحطّ، صامت، خجول، مرتبك، روتيني، يعجز عن الاستمتاع بالمباهج".

وإذا كان من الطبيعي للحركة الصهيونية أن تركّز على تغيير هذا الوصف الشائع لليهودي في أرجاء العالم، إلاّ أنه من غير الطبيعي أن تعتمد في هذا التغيير على شخصياتٍ يهوديةٍ أو ذات أصولٍ يهودية، لامعة وناجحة، ملحدة ورافضة للدين اليهودي.

وتُعتبر سياسة تلميع صورة اليهودي من أصعب المهام التي واجهتها الحركة الصهيونية. فهذه الصورة كانت قد ترسّخت عبر قرون، وبلغت حداً من السوء جعل اليهود أنفسهم يرفضونها وينفرون منها.

وقد تطلّبت هذه المهمّة جهوداً جبّارة، وتضمنّت خطواتٍ عدّة منها:

أ. إبراز الشخصيات اليهودية العلمانية (رغم أن الصهيونية تعتمد التصنيف الديني لليهود)، وراحت تباهي وتُبرز الشخصيات اليهودية

المعروفة بإلحادها، من أجل إظهار اليهودي بمظهر "العبقريّ المتفوّق". هذا كان من أبرز نجاحاتها في حربها النفسية الصهيونية؛ ولكن، هو أيضاً أحد أخطر الشائعات. فهؤلاء العباقرة كانوا أبناء الحضارة التي عاشوا فيها والظروف الحضارية المتوافرة لهم؛ حتّى أن غالبيّتهم كانت رافضة لانتمائها اليهودي.

يقول "سيغموند فرويد"، في كتابه المعنون بـ"موسى والتوحيد" (وهو أحد كبار الفلاسفة الذين تتباهى بهم الصهيونية):"كانت الشروط الأساسية أيّام موسى تتنافى مع تحوّل الإله اليهودي إلى إلهٍ كوني. فمن أين تأتّى لهذا الشعب الصغير البائس والعاجز صلف الادّعاء بأنه الإبن الحبيب للربّ".

ويتابع:"إنه لمّا يبعث على الدهشة أن يختار الإله لنفسه على حين بغتة شعباً من الشعوب ليجعل منه شعبه المختار ... إن هذه الواقعة يتيمةٌ في تاريخ الإنسانية؛ فقد يحدث أن يختار شعبٌ من الشعوب إلهاً جديداً؛ ولكن، لم يحدث قطّ أن اختار إلهٌ من الآلهة شعباً جديداً".

ب. التشبّه بالمعتدي: وكنّا فصّلنا سابقاً ذلك ضمن آليات الدفاع النفسي. فقد تشبّهت الصهيونية بالمعتدي "الأوروبي الغربي"، - حسب مزاعمها- واعتنقت قِيماً علمانية تتناقض مع الشخصية اليهودية وتلغيها. وعن طريق هذا التشبّه، طرِح مفهوم "اليهودي الجديد"؛ وهو لاقى نجاحاً.

ج. التشبّه بالولايات المتحدة (نظرية التماهي مع القاهر) عبر إقامة دولةٍ بلا تاريخ، كما حال أمريكا. وقد وصل هذا التشبّه إلى اعتبار "إسرائيل" الولاية الحادية والخمسين للولايات المتحدة. بما في ذلك من اعتبار أية إدانةٍ

لـ"إسرائيل" إدانة لأمريكا (من هنا كان تدخّل أمريكا في كلّ قرارات الأمم المتحدة لصالح إسرائيل).

د. الكيبوتزات - وهي مستعمراتٌ زراعيةٌ استخدِمت كأداةٍ توثيقيةٍ لصورة اليهودي وإسرائيل. وقد طرحت هذه الكيبوتزات رمزاً عالمياً لتجمّعاتٍ إنسانيةٍ مختصرة. وكانت إسرائيل تستضيف فيها آلاف الشبّان من مختلف أنحاء العالم، وتترك لسكّان هذه المستعمرات مهمّة إقناعهم بصورة "اليهودي الجديد".

سُبل تحقيق الأهداف الصهيونية

ما هي السّبل التي سلكتها الصهيونية لتحقيق الأهداف التي تمّ شرحها سابقاً؟

يمكن تلخيص الإجابة بالتالي:

أ- تأمين التمويل من أثرياء اليهود في العالم، وتسخير نفوذهم في خدمة الحركة الصهيونية.

ب- إستغلال الظروف الدولية لتشجيع الهجرة إلى فلسطين.

ج- نشر الذّعر بين يهود العالم، واستخدام "الهولوكوست" ذريعة لدفعهم إلى اعتناق الصهيونية.

د- الاستفادة من انتشار اليهود في أرجاء العالم وتشجيعهم لاعتناق الصهيونية، عبر إقامة مؤسساتٍ لهذه الحركة في دول الانتشار.

ه- عقد صفقات تهجيرٍ جماعيةٍ وصولاً إلى دفع بدلٍ عن كلّ مهاجر.

و- الاتفاق مع النازية لتهجير اليهود تحت طائلة التهديد بالإبادة..

مراحل تطوّر الحرب النفسية الإسرائيلية

اتسمت العمليات "النفسية الإسرائيلية" بالمرحلية التوسّعية والتخطيط المتقن الذي ينفّذه أخصّائيون يحدّدون معالمه وخطواته، وفقاً لمعطياتٍ وتحليلاتٍ ودراساتٍ شاملة. والعمليات النفسية الإسرائيلية، التي وإن تلوّنت بألوان الواقع السياسي والوضع القائم من غير أن تفقد خطّها، إلاّ أنه يمكن أن نميّز ثلاث مراحل أساسية لها. وهذه المراحل هي:

1- قبل إنشاء الكيان

وقد استخدِمت في تلك المرحلة مقولاتٌ عدّة، هي في معظمها تخيّليةٌ من صنع اليهود أنفسهم؛ نذكر منها:

• مقولة الحقّ التاريخي؛ وقد تحدّثنا عنها سابقاً، والتي سيطرت على الرأي العام الغربي، لاسيّما المسيحي. وهي تزعم بأن اليهود طرِدوا من فلسطين على يد الرّومان وأن لهم حقّ العودة. غير أن الواقع التاريخي يشير إلى عكس ذلك؛ فقبل الحرب العالمية الأولى، كان تعداد سكّان فلسطين (750) ألف نسمة؛ ثمانية أتساعهم من العرب والتسع الآخر فقط من اليهود.

• مقولة العداء للسامية؛ وهي تهدف إلى إحياء الخوف لدى الإسرائيلي، ولإشعاره أن لا أمان له سوى في "الوطن الموعود".

• مقولة شعب الله المختار، حيث يزعم اليهود أنهم أنقى شعوب الأرض، وأن الجنس اليهودي هو المتميّز. وقد استغلّ اليهود هذا الزّعم العنصري لاجتناب

الاندماج مع الآخرين، لأن في هذا الاختلاط فقدان لنقاء اليهود، وبالتالي الإساءة إليهم! وقد أكّدت الأبحاث العملية والحقائق الموضوعية عدم صحّة هذه المقولة؛ فيهود العالم ينتمون إلى أجناسٍ عديدةٍ وليس إلى جنسٍ واحد. وليس في الطبيعة نمطٌ عنصريٌ محدّدٌ لليهودي في سائر بقاع الأرض؛ فهم أبناء دينٍ لا أبناء جنسٍ واحد. ويهود إسرائيل، حسب أرقام مجلّة الـ "نيوزويك" الأمريكية، هم أناسٌ قادمون من تسعين بلداً ويتكلّمون بسبعين لغة!

2- بعد إنشاء الكيان

هذه العمليات تتركّز على المقولات التالية:

أ. مقولة الأرض الخالية من السكّان؛ حيث تزعم "إسرائيل" أن فلسطين أرضٌ بلا شعب لشعبٍ بلا أرض". فقد زعم ليفي أشكول في عام 1969 لصحيفة نيوزويك الأمريكية أن "هناك (يقصد أرض فلسطين) صحراء فقط. بعد أن جعلنا الصحراء تزدهر ومأهولة بالسكّان، أصبحوا مهتمّين بأخذها منا"! وكلّ ذلك بالطبع هو كذبٌ وافتراءٌ وتضليل؛ فأرض فلسطين لم تكن خالية من السكّان، وكان الشعب الفلسطيني متقدّماً في مجال الزراعة، حيث بلغت صادرات الحمضيات من فلسطين قبل الحرب العالمية الأولى أكثر من مليون جنيه فلسطيني، ما يعني أن فلسطين لم تكن يوماً خاليةً من السكّان ولا صحراء قاحلة.

ب. مقولة جيل الصابرا، ومفادها أن من حقّ الجيل الذي ولِد في "إسرائيل"، العيش والاستيطان فيها، ولا يحقّ لأيّ قانونٍ أن يطرده منها.

ويتغنّى إعلام العدوّ دوماً بهذا الجيل وبقدراته الخارقة، كما يستخدم مقولة الجيل الجديد لإقامة المزيد من المستوطنات العدوانية.

ج. مقولة إسرائيل المناضلة من أجل البقاء؛ تدّعي وسائل إعلام العدوّ بأن "إسرائيل" تكافح من أجل العيش بسلام واتقاء الأخطار القادمة من العرب. ومن هذا الادّعاء تبرز مزاعم الحدود الآمنة، الحرب الوقائية، ونظرية الأمن الإسرائيلي.

د. مقولة "إسرائيل" الصغيرة، حيث يقيم اليهود مقاربة بين المساحات التي يسكنها العرب من المحيط إلى الخليج وبين مساحة "إسرائيل" الصغيرة، والتي يُستدرّ من خلالها عطف العالم وتبرّر الأعمال التوسّعية. في الوقت نفسه، يحرص إعلام العدوّ على عدم ذكر كلمة فلسطين، لا خطّياً ولا لفظياً، في أيّ عملٍ يجري داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة، وذلك بُغية إخراجها من الذاكرة العربية والإسلامية نهائياً.

ه. مقولة أن "إسرائيل" جزيرة حضارية في محيطٍ متخلّف؛ وفي هذا، تدّعي "إسرائيل" أنها الوجه الحضاري الأبرز في منطقةٍ يسودها "التخلّف"؛ وهي امتدادٌ للحضارة الغربية "الديموقراطية" في مجتمعٍ غير ديموقراطي- بحسب ادّعاءات الصهاينة.

3- بعد حرب العام 1973

بسبب التطوّرات المتلاحقة في مسار الصراع العربي-الإسرائيلي، عمدت دولة العدوّ إلى استحداث مقولاتٍ جديدةٍ أضيفت إلى سابقاتها، في سياق

حربها النفسية المتجدّدة، لتتلاءم مع التغيّرات السياسية والأمنية في قلب الوطن العربي؛ ومن هذه المقولات:

أ- خطر الإسلام الزاحف

تعمل وسائل الدعاية الصهيونية على رفع درجات التأهّب في جهازها الإعلاني-الدعائي، حيث يلامس الخطّ الأحمر حين التحدّث عن الإسلام وخطره القادم. ولعلّ الأفلام الصهيونية خير تعبيرٍ عن ذلك، حيث تظهر "إسرائيل" بأنها المدافعة عن الحضارة الغربية ضدّ الإسلام. وفي هذا المجال، نذكر فيلم "قنبلة من أجل الإسلام" وآخر باسم "القنبلة الإسلامية"، حيث يتمّ التركيز على وحشيّة "الإرهاب" الإسلامي والعرب والمسلمين "الإرهابيين"!

ب- العربي الثريّ

وقد استخدِمت هذه المقولة بعد حظر النفط العربي عن الغرب في حرب 1973؛ وهي تتركّز على ثراء العربي وامتلاكه للنفط، وأن قوّته وثراءه يجعلانه قادراً على امتلاك قرار الحرب والسلم، وأن "إسرائيل" هي الوحيدة القادرة على ردعه عن أيّ عملٍ عدوانيٍ يُحتمل أن يقوم به ضدّ الغرب.

ج- تشويه الواقع العربي والإسلامي

لعب الإعلام المرئي دوراً خطيراً في تشويه صورة الإنسان العربي المسلم. ولأن الصهيونية لها أذرعٌ طويلةٌ في كلّ مكان، فقد بات الإنسان العربي يظهر

في شاشات التلفزة الأميركية مرّة في كلّ أسبوعين، ضمن برنامجٍ تلفزيوني، في شخصيةٍ مثيرةٍ للضحك والاشمئزاز. ومن هذه المسلسلات نذكر ملفّات روكفورد وملائكة تشارلي!

د- تقديس الطابع القومي اليهودي

تتنافس شركات الإنتاج العالمية، المملوكة في أغلب الأحيان من قِبل يهود، في إنتاج مسلسلاتٍ وأفلامٍ أمريكيةٍ وأوروبيةٍ ضخمة، تهدف إلى الدفاع عن اليهود وإضفاء صفاتٍ لا دخل لهم فيها؛ كالبطولة والإنسانية والأخلاق. ومن هذه الأفلام، الفيلم الإنكليزي (عربات النار)، الذي يتحدّث عن أن اليهود هم "شعب الله المختار"، والفيلم التلفزيوني الأمريكي (إمرأة تدعى غولدا)، الذي يمجّد "البطولات" اليهودية؛ وكلّ ذلك مقابل تشويه صورة الإنسان العربي والمسلم.

هـ - ربط اليهود بالمسيحية

هذه المقولة برزت بشكلٍ واضحٍ بعد حرب عام 1973، وفيها يُطرح ادّعاء بأن المسيح سيظهر للمرّة الأولى بالنسبة لليهود، وللمرّة الثانية بالنسبة للنصارى؛ وكلّ ذلك لا يتمّ إلاّ بعودة اليهود إلى فلسطين وبناء الهيكل الثالث!

يقول المطران العربي (إيليا خوري) في ندوةٍ عُقِدت في (25/6/1981): "قضيتنا الكبرى هي الكنائس في أمريكا. فالكنائس المسيحية هناك تهوّد العقيدة المسيحية، وتجعل الدين المسيحي مذهباً يهودياً"!

خصائص وسِمات العمليات النفسية الإسرائيلية

اتّسمت العمليات النفسية الإسرائيلية بسماتٍ وخصائص عدّة، يمكن تلخيصها بالتالي:

- التخصّص: تمتلك هذه السّمة أهمية كبيرة في إدارة العمليات النفسية، وذلك للقدرات المنفردة التي قد يحملها فريق العمل المختصّ بها؛ لاسيّما وأن من يقوم بهذا العمل داخل كيان العدوّ هم خبراء مختصّون في مجالاتٍ اجتماعيةٍ وسيكولوجيةٍ متنوّعة، وهم قادرون على فهم ما يتطلّبه "الإسرائيلي"، أو إدراك ما يحدث داخل المجتمعات الأخرى.

ويُعتبر فريق التخصّص الإسرائيلي في الحرب النفسية على درجةٍ عاليةٍ من التأهيل، وذلك لأن مجتمعُ العدوّ هو مجتمعٌ تجمّعيٌ بامتياز؛ وكلّ فردٍ فيه يحمل مؤهّلات وخبرات البلاد التي قدم منها، ما يساعد في إيجاد كادرٍ تنظيميٍ تخصّصي في ميادين واختصاصاتٍ مميّزةٍ ومطلوبة.

- المركزية: يعمل فريق العمل المتخصّص المذكور، في إدارة العمليات النفسية ضدّ العدوّ، وفق تخطيطٍ شاملٍ يتمّ رسمه بشكلٍ مُحكم. وقد تأخذ عملية التخطيط هذه فترة زمنية ليست بقليلة؛ كما يتمّ وضع بدائل للخطط المعدّة في حال أيّ فشلٍ في طريقة التنفيذ. وهذه البدائل تكون معلّبة في قوالب جاهزةٍ وحاضرةٍ للعمل الإعلامي الدعائي السريع المنويّ القيام به.

- التوقيت؛ وهو عاملٌ أساسيٌ في إدارة الحرب النفسية. فحسب الصهاينة، يجب أن ينطلق الإعلام الدعائي النفسي الناجح في الوقت المناسب، القابل لإنجاح الهدف.

- التركيز: هذه الصيغة تبدو واضحة في ممارسة السلطة الصهيونية للعمليات النفسية، حيث يتمّ التركيز على هدفٍ ما لفترةٍ طويلة؛ ويكون التكرار قاعدة لهذا التركيز من أجل ضمان نجاح العمل.

- كسب ثقة المجتمع الصهيوني: يعطي إعلام العدوّ أهمّية كبيرة للمصداقية -النسبية- ويسعى لكسب ثقة المستمِع والمشاهِد. وهذه المصداقية تعتمد على سيكولوجيّة الجماهير، مما يتطلّب فهماً واسعاً لأماني وطموحات الشعب الخصم.

الحرب النفسية الإسرائيلية ضدّ العرب

تعريف

قبل التعرّف إلى طبيعة الحرب النفسية التي تمارسها دولة العدوّ الإسرائيلي ضدّ العرب والمسلمين، لا بدّ من الإشارة إلى أن عداء الصهاينة لنا هو عداءٌ انتقائيٌّ واختياري؛ وقد انطلق من استعداء الحلفاء المنتصرين في الحرب العالمية الثانية ضدّ العرب، وبما يتوافق مع سيكولوجيّة (التشبّه بالمعتدي)؛ الآليّة الدفاعية للعدوّ التي تحدّثنا عنها آنفاً.

وقد حدث هذا العداء بناءً على إغراءاتٍ عدّة:

- تجميع اليهود في أرضٍ تكون وطناً بديلاً للشتات، وتحويل إرهابهم الذي كان قد ظهر في أوروبا إلى إرهابٍ مقننٍ ضدّ العرب.

- التخلّص من حثالات الغيتو المترسبة في دولٍ متحضّرةٍ منذ قرون.

- تقديم تعويضٍ مالي (مازال حتّى اليوم) لمذابح النازيّ التي أثارت رعب يهود العالم، والتي كان للحرب النفسية دورها البارز في إشاعته.

- الحصول على مساعداتٍ وأموالٍ طائلة من أثرياء اليهود- لاسيّما السلاح- فقيام "الدولة" يحتاج إلى دعمٍ كبير.

وعليه، فقد تمّ اختيار الشعوب العربية كبش فداءٍ لإرهاب الغرب ضدّ اليهود. وكان على الفلسطينيين والعرب دفع الثمن، حيث بدأت الحرب النفسية ضدّ العرب والمسلمين باختيار بديلٍ جاهزٍ للنازيّ!

الحرب النفسية المباشرة وغير المباشرة

الحرب النفسية المباشرة، هي بالأغلب حرب شائعات، نذكر منها: مقولة بن غوريون التي تعمل على تقزيم العربي وتضعيفه وتعجيزه أمام اليهودي الصهيوني المتفوّق. وهذه الشائعة باطلةٌ في أصلها؛ فالصهيونية لم تحصل على فلسطين بسبب انتصارها في الحرب، بل بسبب تواطؤ دولٍ كبرى وموافقتها على تسليمها هذه الأرض على طبقٍ من ذهب.

* شائعة الخيانة: وهي تطال أيّ زعيمٍ أو مسؤولٍ عربيٍ يُحرج كيان العدوّ.

* شائعة اللجوء: وهي متداولةٌ حتّى الآن، ومفادها أن الفلسطينيين لم يهربوا بسبب المذابح التي ارتكِبت بحقّهم (كمذبحة دير ياسين ومذبحة كفر قاسم)؛ وإنما تركوا أرضهم بناءً على أوامر الجيوش العربية التي كانت تنوي "إبادة" اليهود.

أما الحرب النفسية غير المباشرة، فتتضمّن:

- التضليل الإعلامي؛ الذي وصل إلى أخطر حدوده، حيث جرى تصوير اليهودية على أنها قوميّة (بدليل أن إسرائيل هي وطنٌ قوميٌ لليهود)، مقابل تصوير العروبة على أنها ديانة. وتُظهِر الإحصائيات أن حوالي 86% من الأمريكيين يعتقدون أن إيران وباكستان هما دولتان عربيتان!

- تشويه صورة العربي – وإظهاره على أنه راعٍ أو منزوٍ تغلب عليه

شهواته؛ لا يحترم أيّة مُثل، وهو متخلّفٌ وجاهلٌ وانفعالي (نظرية الإسقاط)؛ أو أنه معدمٌ ماديّاً إلى حدّ الاستجداء، أو هو ثريٌّ يبذّر أمواله الطائلة على القمار والنساء (وهذا ما نشاهده في معظم الأفلام الغربية عن صورة العربي).

- إظهار إسرائيل حامية للمصالح الغربية في المنطقة العربية، لاسيّما من الخطر الإسلامي.

الإعلام الإسرائيلي كأداة للحرب النفسية

لقد أخذ هذا الإعلام على عاتقه تطبيق الوسائل والأساليب التي تتعلّق بالحرب النفسية. لذلك، اعتُبِر هذا الإعلام فيلقاً مسانداً للفيالق العسكرية، يأتمر بأوامر قادتها، وينفّذ تعليماتهم.

وقبل التحدّث عن دور هذا الإعلام، نشير إلى ما قاله القائد الألماني "رومل" حول أهمّية الإعلام النفسي: "إن القائد الناجح هو الذي يسيطر على عقول أعدائه قبل أبدانهم". أما المخطّط العسكري الصيني "صنّ تزو"، فيقول: "إن أعظم درجات المهارة هي تحطيم مقاومة العدوّ دون قتال. فالهزيمة هي حالةٌ نفسيةٌ مداها الإقتناع بعدم جدوى المقاومة؛ أي الاستسلام والتوقّف عن الحرب. والحرب هي وسيلةٌ من وسائل إقناع الخصم بالهزيمة. فإذا اقتنع بالهزيمة وعدم جدوى المقاومة، تحقّق الهدف من الحرب. وإذا أمكن إقناع الخصم بالهزيمة بوسيلةٍ غير الحرب المسلّحة، لم يعد هناك من داعٍ للحرب. من هنا، فإن العدوّ يحاول تحقيق هدف الاستسلام، مستخدماً شتّى أنواع الدهاء والعبقرية في الإعلام والدعاية، والقصد هو هو: إقناع الخصم بالهزيمة.

وبما أن الإعلام الإسرائيلي هو المسؤول الأوّل عن الإعلام والدعاية، فلا بدّ من الإضاءة عليه قليلاً. ينطلق هذا الإعلام من عقيدةٍ توراتيةٍ تدعو إلى (أو تمجّد) العنف ضدّ الآخرين، لاسيّما العرب. "فقتل العرب لا يجب أن يثير شفقة، بل يجب أن يُفرِح اليهود"، ويرضي قناعاتهم. وفي مقابل ذلك، يعمل هذا الإعلام على استثارة مشاعر الرأي العام المحلّي والعالمي، من خلال عرض خسائر بشرية ومالية للعدوّ، يتمّ في الأغلب تضخيمها. وبهذا تستقطب دولة العدوّ "إنسانية" الرأي العام العالمي من جهة، وتدفّعه فاتورة مالية باهظة تعويضاً عن خسارتها المزعومة، من جهة أخرى.

وفي إطار الالتزام بالتعليمات القيادية العسكرية والمدنية، فإن الإعلام الإسرائيلي تعامل مع التنقّلات التي حصلت في قيادات جيش العدوّ مؤخّراً بكلّ حذر، ونقل ما هو مسموح به، من دون إخلالٍ بالتعليمات، ممّا ينفي نظرية الإعلام الحرّ التي تُشاع عن ذاك الإعلام.

الحرب النفسية ضدّ لبنان

دور الإعلام المرئي والمسموع

لقد نشط الإعلام الإسرائيلي بشكلٍ كبيرٍ خلال السنوات الأخيرة، وتعدّدت أساليبه وطُرقه، لاسيّما تلك الموجّهة إلى المقاومة أو إلى حزب الله، بهدف إثارة الرأي العام العالميّ ضدّه من جهة؛ والمواطنين اللبنانيين من جهةٍ ثانية. واستخدم هذا الإعلام أساليب معروفة في الحرب النفسية، في مقدّمتها قذف منشوراتٍ من الطائرات تدعو المواطنين للنزوح من ديارهم. وقد نجح هذا الأسلوب نسبياً؛ ولكن ليس بسبب تأثير تلك المنشورات، بل لأنه ترافق مع أعمالٍ حربيةٍ وحشيّةٍ ضدّ المدنيين، حيث ارتكِبت "إسرائيل" عشرات المجازر في القرى والمدن اللبنانية. وبهذا يكون القصف هو الذي أجبر الناس على النزوح، وليس المنشورات التي كانت تحرّض الناس على الحزب. وما حصل أثناء الحرب وبعده هو الالتفاف الشعبي الذي قلّ نظيره، لاسيّما حول قائد المقاومة الذي عرف كيف يتعامل مع العدوّ؛ سواء نفسياً أو عسكرياً.

وفي المقابل، فإن الإعلام اللبناني ردّ الكيل كيلين لإعلام العدوّ. فهو كان موحّداً (بمعظمه) طوال فترة الحرب، لاسيّما الفضائيات. وقد جيّشت هذه القنوات كلّ أجهزتها في نقلٍ مباشرٍ للحرب وتصريحات المواطنين اللبنانيين الذين كانوا يمجّدون المقاومة وقائدها في أصعب اللحظات؛ حيث كانت تدمّر بيوتهم ويُقتل أولادهم ويشرّدون في العراء ... كلّ ذلك وقع كالصاعقة على العدوّ الذي أدهشه هذا الالتفاف الشعبي حول المقاومة وقائدها، ممّا أربكه نفسياً وسياسياً.

أضف إلى ذلك، الفشل العسكري الذريع الذي مِني به الصهاينة على أيدي المجاهدين، والذي خلق حماسة ووطنية وعربية سُمِعت أصداؤها في كلّ مكان. وبتنا نسمع عبر وسائل الإعلام عن عددٍ كبيرٍ من الشباب العرب الذين يبدون استعدادهم للالتحاق بالمقاومة في لبنان.

ولو حصرنا حديثنا قليلاً عن وسائل الإعلام، فإنه يجب التنويه بدور قناة "المنار" الناطقة باسم "حزب الله"، والتي عرفت كيف تتعامل مع إعلام العدوّ بشكلٍ متفوّق، ووقفت في مقدّمة الفيلق العربي الإعلامي. لقد ظلّ صوت تلفزيون "المنار" مسموعاً رغم تدمير مبناه الرئيسي في الضاحية الجنوبية من بيروت، ولم يستطع العدوّ ترصّد مكانه البديل. والملفت أن معظم الفضائيات العربية قد غطّت مناطق القتال البرّي في جنوب لبنان، وأماكن القصف الجوّي الإسرائيلي في الساحل والبقاع والشمال وبيروت؛ وكانت لغة الخطاب الإعلامي واقعية في أغلب هذه الوسائل، تعتمد نقل الحقائق والأحداث دون تشويهٍ أو انحياز.

الإعلام المقاوم: صوت وصورة

يتحدّث المراقبون "الإسرائيليون" عن أن "إسرائيل" واجهت في عدوان تمّوز 2006 خصماً إعلامياً ذكياً ومتطوّراً.

أما "آلون بن دايفيد"، المعلّق العسكري للقناة التلفزيونية الإسرائيلية العاشرة، فيقول في معرض توصيفه للحرب الإعلامية بين المقاومة و"إسرائيل" خلال الحرب: كانت تلك حرباً غير ناجحة. وأقول أن إعلامنا عكس حرباً لم تكن جيّدة ... إسرائيل واجهت في الحرب خصماً إعلامياً ذكياً ومتطوّراً، ذا

قدراتٍ إعلامية وبُنية تحتية إعلامية لم تعرف إسرائيل مثيلاً لها في تاريخها. حزب الله كان خصماً أشدّ ذكاءً من جميع الخصوم. لقد كانت الحرب الأشدّ من الناحية الإعلامية، من أيّ حربٍ سابقة في تاريخ إسرائيل.

هذا الرأي يعكس حجم الأزمة التي عاشها كيان العدوّ خلال حرب تمّوز؛ كما يعكس من جهةٍ أخرى مدى تأثير الإعلام العربي في زعزعة قدرات العدوّ المعنوية.

هذا الإعلام المقاوم الذي أدخل أدواتٍ جديدة في إطار حربه النفسية، تجلّت في توثيق العمليات الحربية وبثّ رسائل المجاهدين أثناء الحرب إلى سماحة السيّد حسن نصرالله، وردود سماحته عليها، ممّا عزّز صمود الناس، وخلق حالة معنوية لا مثيل لها على كلّ المستويات، أظهرت مدى تعلّق المجاهدين بقيادتهم ومدى تعلّق القائد بمجاهديه وشعبه؛ ناهيك عن الأفلام التسجيلية للاستشهاديين الذين ينفّذون عملياتهم والفرح بادٍ على محاياهم.

ولم يوفّر حزب الله أيّة وسيلةٍ يستطيع استخدامها، وصولاً إلى الشبكة العنكبوتية وحرب المواقع الإلكترونية؛ إذ غالباً ما يصل كوادر وتقنيّو الحزب إلى اختراقها لبثّ رسائل عبرها تفضح الصهيونية وجرائمها.

إنتصار تمّوز يقلب المعادلة

لقد استطاعت نتائج حرب تمّوز 2006 قلب المعادلة التي كانت سائدة لعشرات السنين بين لبنان والكيان الصهيوني. فلبنان الضعيف أصبح قوياً بقدرات جيشه ومقاومته وشعبه؛ و"إسرائيل" الجبّارة إنهزمت على بوّابات

الكرامة في عيتا وبنت جبيل ومارون الراس وغيرها من القرى اللبنانية التي صمدت بوجه المحتلّ الحاقد.

وإذا سلّمنا جدلاً بأن الكيان الصهيوني ما تعوّد يوماً أن يجد نفسه مهزوماً أمام العرب، وأنه سيحاول إشعال حربٍ جديدةٍ تردّ إليه كرامته وهيبته المفقودتين أمام شعبه وأمام الرأي العام العالمي، لاسيّما بعد تقرير فينوغراد التي اعتبر أن "إسرائيل لم تنتصر عسكرياً" ولم تحقّق أهدافها؛ ويبقى عليها -حسب التقرير - العمل على استعادة هذه المكانة المفقودة! لكنّ الكيان يدرك تماماً أن أيّ حربٍ أخرى لم تعد نزهة، وأن النتائج ليست مضمونة أمام مقاومة متوثّبة بكلّ إمكاناتها المادّية والمعنوية والعسكرية لقتال ذاك العدوّ المتغطّرس.

إن حسابات الحرب الصعبة، وعدم الثقة بقدرات الجيش "الإسرائيلي" على الانتصار عسكرياً على المقاومة صارا العاملين الأساسيين أمام قيادة تل أبيب لتقرير أية حربٍ أخرى ضدّ لبنان. من هنا نفهم كثافة تصريحات قادة العدوّ التي حاولت محو "زلّة لسان" الوزير "يوسي بيليد" حين تحدّث عن اقتراب المواجهة الحاسمة مع حزب الله! وكلام بنيامين نتنياهو، رئيس الوزراء الصهيوني، جاء على غير عادته، عبر بيانٍ صادرٍ عنه- يؤكّد فيه أن "إسرائيل" لا تسعى إطلاقاً لمواجهةٍ مع لبنان، وتريد السلام مع هذا البلد، كما مع جميع جيرانها"!

تؤكّد المعاهد والمراكز الاستراتيجية الإسرائيلية بأن "جيش إسرائيل يستطيع تدمير لبنان والمنشآت الحكومية والقيام بأعمالٍ عسكريةٍ ضدّ حزب الله، لاسيّما بعد التدريبات والمناورات المكثّفة التي جرت مؤخّراً. لكنّ

تحقيق الانتصار على حزب الله ليس مضموناً، لأنه من غير المعروف كيف سيكون ردّ الحزب وحجم الصواريخ الجديدة التي قد تصل إلى كلّ الأراضي الإسرائيلية".[1]

ويتلاءم مع هذا التقدير، التقرير الخطير الذي أعدّه الكولونيل "روبي ساندمان" رئيس شعبة التطبيقات في سلاح البحرية في الجيش الإسرائيلي، حيث خلص في تقريرٍ نشرته مجلّة "معراخوت" التابعة للجيش، إلى أن حزب الله تفوّق في حرب تمّوز على الجيش الإسرائيلي في مجالات الاستخبارات والاستراتيجية ونظرية القتال.

وهذا التقرير كان خلاصة استطلاع آراء قادةٍ بارزين في جيش العدوّ بلغ عددهم 24 قائداً. واعتبر التقرير أن سلاح الجوّ الذي يعوّل عليه الإسرائيليون في تفوّقهم العسكري على حزب الله لم يعد له دورٌ حاسم، لأن مدى صواريخ حزب الله البعيد جعل هذا السلاح قليل الفاعلية.

ويحذّر "ساندمان" في تقريره واشنطن من مغبّة أيّ تهاونٍ في تقديم المعونات العسكرية لـ"إسرائيل"، بقوله: "إن حرمان إسرائيل من هذا الدّعم سيؤدّي إلى تراجع دعم المجتمع اليهودي للإدارة الأمريكية الحالية؛ كما ستضطرّ (إسرائيل) إلى تغيير سياساتها تجاه أميركا على أساس أنها ستصبح دولة بلا حليفٍ قويٍ يدعمها".

وكنتيجةٍ لذلك، أوصى "ساندمان" قيادته العسكرية بأن تكدّس الأسلحة

---

[1] نشرة موجزة على موقع filka الإسرائيلي.

وتزيد التدريبات المشتركة مع أمريكا، لأن "الدعم الأمريكي سيجعل الأعداء يفكّرون أكثر من مرّةٍ قبل أن يشنّوا أيّ هجوم".

ما معنى هذا الكلام؟

إنه توازن الرعب. أجل؛ هذه هي النظرية-المعادلة التي صنعتها المقاومة في لبنان، والتي جعلت الإسرائيلي يفكّر أكثر من مرّة ويراجع حساباته جيّداً قبل التفكير في شنّ أيٍ عملٍ عدوانيٍ ضدّ لبنان. فهذا البلد لم يعدّ لقمة سائغة في فم من يريد ويرغب!

وفي إطار معادلة توازن الرعب، يأتي خطاب سماحة السيّد حسن نصرالله الأخير، حين تحدّث عن معادلاتٍ جديدة (الضاحية مقابل تل أبيب – مطار بيروت الدولي مقابل مطار بن غوريون- وما إلى ذلك). وفي هذا الخطاب، يكون سماحته قد بدأ من حيث انتهت حرب تمّوز 2006: ما بعد .. ما بعد حيفا.

في المقابل، لعبت وسائل الإعلام المقاوم دوراً هاماً في هذا المجال. فما كاد الأمين العام لحزب الله ينهي خطابه، حتّى انطلقت هذه الوسائل بحملةٍ إعلاميةٍ مركّزةٍ وواسعةٍ ترصد ردود الفعل "الإسرائيلية" على الخطاب وتشنّ حرباً نفسية باتجاه العدوّ، عبر تكثيف التقارير التلفزيونية المفصّلة حول منطقة "غوش دان" (التي يُفترض أن تكون هدفاً رئيسياً لصواريخ المقاومة)، والتي تتكوّن من 22 مدينة، تشكّل مركز الكيان، وفيها معظم المؤسسات الحكومية والمباني الوزارية، وهي مركز التكنولوجيا والتعليم والعصب الاقتصادي والصناعي والتجاري للكيان. كما تضمّ مطار بن غوريون ومركز محطّات القطار الداخلي.

وعليه، فإن منطق حمل غصن زيتونٍ بوجه محتلٍ يهدّد الأرض والشعب متى شاء أصبح منطقاً مرفوضاً، لأن لا شيء يمنع العدوّ الصهيوني عن طموحاته التوسّعية سوى سلاح المقاومة الذي يحمي ساح الوطن وشعبه. وهذا الخيار يعني إسقاط أحد أهم أهداف الحرب النفسية للعدوّ، لجهة التهوين من شأن أيّ فعلٍ مقاومٍ للاحتلال والهيمنة.

الحرب النفسية ضدّ لبنان بعد عدوان تمّوز 2006

يأتي لبنان في طليعة الدول المستهدفة في الحرب النفسية المشتركة "الإسرائيلية-الأمريكية" التي لا تهدأ ضدّه، لا سيّما في السنوات الأخيرة؛ لما يشكّل هذا البلد من خلال مقاومته للاحتلال من قوّة تحدٍ وممانعةٍ للمشروع الأمريكي-الصهيوني في المنطقة العربية والإسلامية.

وقد تزايد بشكلٍ ملحوظٍ نشاط (وأساليب) الحرب النفسية الموجّهة ضدّ لبنان بعد النجاحات المتلاحقة للمقاومة على كيان العدوّ. فكان لا بدّ من صنع شبكةٍ إعلامية-سياسية دائرية مغلقة، هدفها الأساس تجييش الرأي العام العالمي ضدّ هذا الوطن الصغير وتشويه طابعه الحضاري ونسْب تهم الإرهاب إليه.

وقد استخدم العدوّ لذلك مصطلحاتٍ جديدة عمّمت على الرأي العالم العالمي، حتى أصبح اللبناني أسير كلمة الإرهاب في قفصٍ من صنع الصهيونية العالمية.

وفي سياق الحملة النفسية التحريضية هذه، جاء القانون الأمريكي الأخير

الذي صدر عن الكونغرس، والذي يقضي ب"معاقبة الأقمار الصناعية والمحطّات الفضائية والأشخاص والجهات التي تحرّض على العنف ضدّ الولايات المتحدة في الشرق الأوسط".

وفي إطار هذه الحملة أيضاً، تأتي قضية إخضاع المسافرين اللبنانيين إلى الولايات المتحدة لإجراءاتٍ استثنائيةٍ من تفتيشٍ ومراقبة وما إلى ذلك، وكأنّ اللبنانيين لا تكفيهم الحملات الدعائية الشرسة التي تقوم بها وسائل الإعلام الأوروبية والصهيونية؛ بل إن إهانتهم في المطارات الدولية باتت أمراً مطلوباً لتشويه صورة الإنسان العربي والمسلم بشكلٍ عام، واللبناني بشكلٍ خاصّ، كونه حاضناً صلباً للمقاومة التي تقف بوجه الاحتلال ومحاولاته المتكرّرة لسلب الأرض والمياه اللبنانية.

وتحمل الحرب النفسية المشتركة تلك، في أحد أوجهها، مظهر تبنّي منظّماتٍ وأحزابٍ لها تاريخها الطويل في العمالة لأميركا ولإسرائيل ضدّ بلدها، في خطّةٍ محكمةٍ لإضفاء أجواء من التوتّر على الوضع الداخلي والتحريض على سلاح "حزب الله"، الذي يملك وحده استراتيجية عسكرية دفاعية قادرة على ردع أيّ عدوانٍ صهيونيٍ على لبنان.

ويأتي تبنّي هذه الحركات والمنظمات الداخلية في إطارٍ واحدٍ لا شريك له، هو إضعاف الحزب المقاوم لتجريده من سلاحه وتثوير الرأي العام ضدّه، على اعتبار "أنه مسبّب" لأيّ عدوانٍ محتملٍ من قِبل العدوّ، ما سيُنتج -حسب زعم هؤلاء- نصراً "إسرائيلياً" يقلب المعايير! وهذا ما لن يحصل مطلقاً، لأن من

انتصر على "إسرائيل" مرّتين، عام 2000 وعام 2006، بقدراتٍ عسكريةٍ أقلّ بكثيرٍ من اليوم، سينتصر بلا شكٍ في أيّ عدوانٍ مرتقب، لا سيّما في ظلّ الترسانة العسكرية الضخمة التي أصبح يملكها حزب الله، والهادفة فقط إلى مقارعة الاحتلال وردعه عن أيّ خطوةٍ توسّعيةٍ باتجاه لبنان.

سياسة التحطيم النفسي الإسرائيلي ضد الفلسطينيين

بعد الحرب النفسية "الإسرائيلية " المباشرة وغير المباشرة، تشكّل سياسة التحطيم النفسي في الأراضي المحتلّة الجزء الثالث من هذه الحرب النفسية. فقد اتخذت هذه السياسة بعداً هامّاً من أبعاد الاستراتيجية الصهيونية للتأثير على الفلسطينيين؛ إن في اتجاهاتهم السياسية، أو في أُطرهم المرجعية أو في معنوياتهم؛ وبالتالي إدراكهم السياسي. وكلّ ذلك من أجل منع تبلور الموقف الثوري بين الفلسطينيين، وضرب التبلور الكياني الاستقلالي لديهم، وصولاً إلى حالٍ من اليأس والانهيار، تمهيداً لإعلان رفضهم فكرة المقاومة وتخلّيهم عن تحمّل أعباء الصراع.

وقد اتخذت سياسة التحطيم النفسي الإسرائيلي للمواطنين الفلسطينيين خطوطاً عريضةً تجلّت بـ: إضعاف الثقة في ذاتهم القومية، تبديل قناعاتهم، ضرب وحدتهم الوطنية، شقّ صفوفهم، وغيرها..

إضعاف الثقة في الذات القومية

من أجل تحقيق هذا الهدف، حاول كيان الاحتلال الإسرائيلي إيصال مواطني الضفة الغربية وقطاع غزّة إلى حالة اليأس والاستسلام الكامل. فكانت سياسة القبضة الحديدية أو العقاب الجماعي، لتحقيق حالةٍ من الخوف والذعر الدائمين، واللذين يبقيان المجتمع في وضعٍ من "اللاتوازن الثابت"، الناتج عن تمزيق النشاطات المادّية للنظام الإجتماعي.

وتؤدّي هذه السياسة أيضاً إلى خلق شعورٍ عامٍ بأن هناك قوىً أخرى تسيّر

المجتمع وتتحكّم فيه، ما يوصل هذا المجتمع في النهاية إلى حالةٍ مرضيّةٍ تتمثّل في الاغتراب بكافّة مظاهره، ابتداءً بالهروب النفسي والديني والمادّي. وتتجسّد سياسة "القبضة الحديدية والعقاب الجماعي" في ناحيتين:

الأولى: إنزال العقاب القاسي والسريع (والتهديد) بكلّ من اشترك أو سيشترك في هذه الأعمال، وبكلّ من يساعده أو يتستّر عليه.

أما الثانية، فتتمثّل في حجب التسهيلات الممنوحة، مثل حرّية السفر والتنقّل؛ وذلك من أجل إبقاء المواطنين في حالة مفاضلةٍ بين المخاطر التي تحلّ بهم بعد حدوث أيّ عملٍ مقاوم، وبين العيش بسلامٍ بعيداً عن الإجراءات التي قد يتعرّضون لها. ومن نماذج هذه الإجراءات:

أ. الاعتقال الجماعي، وأحياناً (لعائلاتٍ بكاملها)، اعتقِل أفراد فيها، بتهمة الاشتراك في أعمال المقاومة، ونقلهم إلى معسكرات اعتقالٍ جماعية.

ب. نسف أو هدم بيوت الأشخاص الذين قاموا بعمليات مقاومةٍ ضدّ الاحتلال، فور اعتقالهم أو استشهادهم. وتمتدّ عملية الهدم لتصل أحياناً إلى البيوت المجاورة لمكان الحادث، على اعتبار أنها قد تكون قدّمت مساعدة للمقاومة .

ت. فرض إقامةٍ جبريّةٍ خاصّة، على القيادات العمّالية والثقافية (المفترضة) في بيوتهم أو أحيائهم، واستدعاؤهم المتواصل إلى مراكز الشرطة الصهيونية.

ث. تحطيم الإضرابات، خاصّة التجارية منها، بالقوّة، وإرغام الناس على فتح محالّهم بقوّة السلاح.

ج. إحكام عمليات الحصار الاقتصادي على المناطق التي تندلع فيهاأعمال مقاومة، ومنع مواطنيها من السفر إلى الخارج.

ح. تسليح المستوطنين اليهود في المستوطنات التي أقيمت في معظم الأراضي المحتلّة، وتشجيعهم على القيام بأعمالٍ إرهابيةٍ ضدّ الفلسطينيين.

سلاح الشائعات

وهو الأخطر في تلك المنطقة على الصعيد النفسي، لما تُنتجه الشائعة من حيرةٍ عقليةٍ وقلقٍ شخصيٍ وتوتّرات انفعالية. وتوصف الشائعة بأنها أكثر الأسلحة النفسية فتكاً، لأنها لا تخاطب -في العادة- عقولاً واعية؛ وهي توجّه سمومها إلى الناس بشكلٍ عشوائي. وقد ظهرت الشائعة في الضفة الغربية وقطاع غزة على مستوياتٍ مختلفة؛ فكانت شائعات الخوف، ويدور معظمها حول قدرة جهاز الاستخبارات الإسرائيلي على معرفة كلّ صغيرةٍ وكبيرة، ممّا يؤدّي إلى آثارٍ سلبيةٍ على مستوى الشعب المستهدف.

شائعات الأماني، وتبرز كتعويضٍ نفسيٍ في لحظات الضياع والقلق داخل الكيان.

<u>الشائعات داقّة الأسافين</u>: وهي المعبّرة عن الكراهية والعداء، لتفتيت الوحدة الوطنية. وهو مطلب رئيس للصهاينة من أجل إحكام سيطرتهم. ولتحقيقه، اعتمدت "إسرائيل" أساليب ثلاثة: نسف الروابط العائلية، زرع الشكوك بين المواطنين، وخلق الانقسامات في صفوفهم.

خطورة عمل الفلسطينيين داخل الكيان

لجأت سلطات الاحتلال إلى تشجيع الشباب االفلسطينيين على العمل داخل الكيان وإلى الإدمان على المخدرات، مع فتح باب الهجرة إلى الدول العربية للشباب المثقّفين والمتعلّمين، في محاولةٍ صهيونيةٍ لتفكيك الروابط الأسرية داخل المجتمع الفلسطيني.

خطورة العمل في "إسرائيل"

يؤدّي عمل الفلسطينيين داخل الكيان إلى بروز ظواهر سلبية منها، تغيّب ربّ العائلة عن عائلته لساعاتٍ طويلة. وقد يبيت في مكان عمله، ولا يرجع إلى أسرته إلاّ في العطلة الأسبوعية؛ وهذا بدوره يؤدّي إلى مشاكل داخل العائلة. أضف إلى ذلك، أن العمل في "إسرائيل" يجتذب صغار السنّ والمراهقين، وهم في أغلبهم من الطلاّب، ممّا يؤثّر في استكمال تحصيلهم العلمي، ويصبحون غير خاضعين لإشراف العائلة وأنظمتها.

فتح مجالات الضياع والانحراف واللّهو

ساعد الاحتلال على فتح هذه المجالات بشكلٍ واسع، في تحدٍ منه للتقاليد العربية والمفاهيم الإسلامية. وقد تولّت سلطات الاحتلال حماية تصرّفات الإسرائيلي الغير لائقة (من ذكور وإناث) في الأحياء العربية والأماكن المقدّسة، وذلك من أجل إضعاف معنويات الفلسطينيين. كما شجّعت على ممارسة الجنس في أكشاك الحدائق العامّة، وقامت بتسهيل نشر وتعاطي المخدّرات.

زرع الشكوك بين المواطنين

إتّبعت سلطات الاحتلال هذه الوسيلة النفسية تطبيقاً لفرضيّةٍ تقول بأن زرع الشكوك بين المواطنين يؤدّي إلى فقدان ثقتهم ببعضهم البعض. ومن الأمثلة على ذلك:

1. إرسال دوريّاتٍ عسكريةٍ لزيارة عائلةٍ ما في المساء، والمكوث لشرب القهوة أو مشاهدة برامج تلفزيونية، ثمّ مغادرة المنزل بطريقةٍ ملفتة، ممّا يشكّك الجيران في هذه العائلة.

2. دسّ عملاء بين المعتقلين، وتسريب أنباء مفبركة؛ لتحطيم معنويّاتهم ووحدتهم، وللإيحاء أن العمل المقاوم يحوي الكثير من العملاء.

3. إيهام الأشخاص المعتقلين بأنهم يعرفون كلّ شاردةٍ وواردةٍ عنهم، وأن هذه المعلومات استحصلوا عليها من أقاربهم وجيرانهم. وهذا كذبٌ واضح، الهدف منه إيهام المعتقلين بأن قادة في المقاومة يعيشون في الخارج مرتبطون بجهاز الموساد.

خلق الانقسامات بين الناس

لجأت إسرائيل إلى سياسة "فرّق تشد" البريطانية الأصل من أجل ضرب المواطنين بعضهم ببعض، مستفيدة من الموروثات والعادات العربية القديمة، وقضايا الخلاف على الأرض ونظام الإرث، ومستفيدة أيضاً من أدبيّات من سبقوا في هذا المجال، والتي تشير إلى أن المجتمعات المستعمرة تشكّل بؤراً صالحة لنموّ الخلافات بين أفرادها.

محاربة الثقافة العربية

عمدت سلطات الاحتلال إلى محاربة الثقافة العربية-الإسلامية في الضفة الغربية وقطاع غزة، باعتبارها المحور الذي قد يلتفّ حوله الفلسطينيون للتخلّص من الاحتلال، والأداة الرئيسية التي تحفظ شخصيتهم العربية الفلسطينية التي استهدفتها الغزوة الصهيونية. وفي إطار ذلك، لجأت قوّات الاحتلال إلى:

- طمس المعالم العربية، حيث تمّ تغيير أسماء المدن والشوارع والقرى، واستبدالها بأسماء عبرية. فالضفة الغربية أصبحت "يهودا والسامرة"؛ علاوة على زرع المستوطنات في كلّ مكانٍ لتغيير المعالم الجغرافية العربية.

- محاولة القضاء على التراث الإسلامي، والمقدّسات الإسلامية، وطمس تراث فلسطين الثقافي والحضاري وسرقته.

- منع تداول بعض الكتب، وإعاقة صدور الصحف الوطنية، ومراقبة الندوات الفكرية والأدبية، واتخاذ إجراءاتٍ قمعيةٍ ضدّ أيّ عملٍ "يخلّ بثقافة إسرائيل".

- إجبار المدارس على تدريس كتبٍ مغلوطةٍ تحرّف تاريخ وجغرافيا المنطقة.

تشويه الطابع العربي والإسلامي لفلسطين

اعتقدت سلطات الاحتلال بأن عزل المواطن الفلسطيني في الضفة وغزة

عن محيطه العربي يؤدّي إلى سهولة التحكّم فيه والسيطرة عليه، نفسياً. وقد ركّزت الدعاية الإسرائيلية الموجّهة على حال اللامساواة التي كانت قائمة بين الضفتين تحت الحكم الأردني منذ عام 1948؛ وذلك كمقدّمةٍ للتشكيك في المحيط العربي للمواطنين الفلسطينيين؛ وإقناعهم بأن الدول العربية تخلّت عنهم ولا تستطيع تخليصهم من الاحتلال. لذا، ليس عليهم سوى الإذعان للأمر الواقع والتفكير المستقلّ عن الإطار العربي!

التعايش مع الاحتلال والقبول به:

أيضاً، ركّزت الدعاية الإسرائيلية على إقناع مواطني الضفة الغربية وقطاع غزة بأن طريق السلام طويل. وللوصول إليه، لا بدّ من تعايشٍ بين العرب -تحت الاحتلال- واليهود. كما ركّزت على أن الصراع لا يحلّ إلاّ بالطّرق السلمية، وعن طريق المفاوضات؛ وحرصت هذه الدعاية على إلقاء ظلال الشكّ على نتائج أيّ عملٍ عسكريٍ يقوم به الفلسطينيون أو الدول العربية ضدّ كيان الاحتلال.

التخلّي عن حالة اللجوء

بما أن مخيّمات اللاجئين في الضفة الغربية وقطاع غزة، تذكّر دوماً بالقضية الفلسطينية، فقد اهتمّت سلطات العدوّ بهذه المسألة كثيراً، وعملت على إقناع الفلسطينيين بمسألة "تحسين أوضاعهم" والخروج من المخيّمات والاندماج بالسكّان "الأصليين"!

وإزاء كلّ ذلك، يبرز السؤال الأهمّ: ما العمل؟ وكيف نواجه هذا العدوّ الشرس الكاذب؟ وبالأخصّ حربه النفسية علينا؟!

الحرب النفسية الإسرائيلية ضدّ غزّة

حرب المصطلحات

يذكر الدكتور محمّد السيّد سليم، أستاذ العلوم السياسية، في مقالٍ نشرته صحيفة (الشروق) تحت عنوان "الحرب على غزة أو العدوان بالمصطلحات، " في شهر شباط 2009، أن الحرب بالمصطلحات في الوطن العربي بدأت مع زيارة "هنري كيسنجر" وزير الخارجية الأميركي للمنطقة في عام 1973، حيث استخدم مصطلح "عملية السلام" في الشرق الأوسط. وهو لم يكن يعني إقامة سلامٍ بقدر ما كان يعني عقد سلسلة إجراءاتٍ متتاليةٍ تنتهي بإقرار السلام يوماً!

وكانت النتيجة أن "العملية"، بمعنى المفاوضات والمشاورات والجولات الأمريكية، استمرّت دون تحقيق أيّ سلام. وعلى نفس هذا المنوال، تنطبق المصطلحات العديدة الأخرى التي ظاهرها يوحي بشيء، بينما في باطنها شيءٌ آخر. فـ"إسرائيل" مثلاً عندما تقول بـ "انسحابٍ" من منطقةٍ ما هي لا تعني ترك المنطقة؛ إنما فقط إعادة الانتشار العسكري فيها. وهي عندما تتحدّث عن تجميد الاستيطان، لا توقف هذا الاستيطان؛ وإنما تكون في الواقع تخطّط لإقامة المزيد من المستوطنات. أما التطبيع، فهو مصطلحٌ خبيثٌ وملتبس، لأن العلاقات الطبيعية بين الدول تحتمل معنيين: أحدهما يقوم على التعاون السلمي، والآخر قد يكون صراعياً؛ ولكنّه في الوقت الراهن أصبح ينطبق على حالةٍ واحدةٍ هي التعاون السلمي الذي يُظهر المقاومة بأنها مجرّد سلوكٍ "غير طبيعي"!

ويخلص الدكتور سليم إلى أن اللغة تُستخدم كأداةٍ للتضليل والإيهام وليس كأداةٍ للتوصيل؛ بمعنى أن المصطلحات المستخدمة عادة ما تُخفي في طيّاتها أهدافاً شريرة. وهذا ينطبق على مصطلحات العدوّ قبل وأثناء وبعد القيام بأيّ عملٍ عدوانيٍ عسكري.

ولنأخذ مثلاً "مصطلح" وقف تهريب السلاح إلى غزة"؛ وهي الدعوة التي أطلقتها "إسرائيل" في الأشهر الأخيرة وحرّكت لأجلها الدول الغربية، التي استنفرت بدورها وأرسلت العديد من السفن والبوارج لمراقبة المنافذ التي يمكن أن يصل منها السلاح إلى القطاع. هذا المصطلح النفسي استطاع خداع الكثيرين، بإظهاره أن المشكلة الأساس هي تهريب السلاح، وليس الاحتلال الذي يضطرّ الناس للحصول على السلاح بأيّة وسيلةٍ للدفاع عن أنفسهم.

وكذلك، نأخذ مصطلح "الدول المعتدلة" التي يتفنّن "الإسرائيلي" في الحديث عنها، والذي جعل "تسيبي ليفني" تدعو إلى مساندتها خلال لقائها مع المبعوث الأمريكي "جورج ميتشل" في 26/2/2009. إن مصطلح الاعتدال هنا يفقد نزاهته حين يصبح شهادة من "إسرائيل" لبعض الأنظمة العربية. فالاعتدال هذا يقتضي موالاة لـ"إسرائيل" والتنكّر لحقوق الشعب الفلسطيني ولجميع المقاومين الشرفاء ضدّ الاحتلال!

حملة إعلامية تضليلية

في الرابع من كانون الثاني 2009، نشرت صحيفة "أوبزرفور" البريطانية تقريراً ذكرت فيه أنه ومع بداية الحرب على غزّة، بادرت الحكومة الإسرائيلية

إلى إنشاء إدارةٍ خاصّةٍ للتأثير على كافّة وسائل الإعلام، برئاسة السفير الإسرائيلي السابق لدى الأمم المتحدة "دان غيلرمان". وعاونه في هذه المهمّة ممثّلون عن وزارتي الدفاع الخارجية وحشدٌ من مكتب رئيس الوزراء، إضافة إلى أجهزةٍ أمنيةٍ متنوّعةٍ تابعةٍ للجيش والشرطة.

وأضافت الصحيفة، إن فيضاً من الدبلوماسيين ومجموعات الضغط والمدوّنات الإلكترونية أغرقت وسائل الإعلام المختلفة برسائل تمّت بلورتها مسبقاً بشكلٍ دقيق ومدروس؛ والهدف واحد، وهو تبرير النهج العدواني الإسرائيلي والدفاع عنه.

والواقع أن مهمّة هذه الحملة الدعائية تركّزت أساساً على نشر كمٍ هائلٍ من الأضاليل والأكاذيب والإفتراءات من أجل تبييض الوجه الإجرامي للحرب المعلنة على غزة، وتثبيت الادّعاء بأن ما تقوم به "إسرائيل" هو "دفاعٌ عن النفس" ضدّ الإرهاب" فحسب!

وقد تصدّى لهذه الأكاذيب العديد من الكتّاب العرب والأجانب. وكان ملفِتاً ما جاء في مقالين، كتب أحدهما الباحث اليهودي الأمريكي "هنري سيغمان" ونشِر في مجلّة لندن ريفيو أوف بوكس Box of Review London، في العدد الصادر في 29/1/2009، تحت عنوان "الأكاذيب الإسرائيلية".

أما المقال الثاني، فهو للفرنسي "دومينيك فيدال" الذي نشر في مجلّة "لوموند دبلوماتيك" في عدد شباط 2009، مقالاً تحت عنوان "كلّما كانت

الكذبة كبيرة". و موقف صاحبي المقالين واضحٌ في العنوان؛ أمّا المضمون، فقد فنّد كذب وإجرام "إسرائيل" المستمرّ منذ نشأتها.

حرب دعائية على غزة

في ما مضى، أطلقت رئيسة وزراء العدوّ، "غولدا مائير"، رداً على انتقاداتٍ وجِّهت إلى حكومتها، عبارة شهيرة تقول:"يمكننا أن نغفر للعرب قتلهم لأطفالنا. ولكنّنا لا نستطيع أن نغفر لهم أبداً أنهم جعلونا نقتل أطفالهم". أصلف من هذا الكلام ماذا سيكون؟

القاتل يظهر بدور الضحية، وهو دورٌ طالما أجاد القيام به المتوارثون على السلطة في كيان العدوّ: صقوراً وحمائم. فالقاتل هو إنسان ديموقراطي يحترم حقوق الناس، لاسيّما الأطفال. (لنسترجع معاً صور مئات الأطفال الذين قتلتهم حديثاً آلة الحرب الصهيونية في لبنان وغزة).

هل هي مهزلة؟ أم ماذا؟ بالطبع لا؛ فما يجري بالضبط هو تلخيصٌ للموروثات العقائدية الصهيونية التي تغطّي نفسها دائماً بلعب دور الضحية. ويتناغم مع هذا المناخ، التصريح الذي أدلت به الجاسوسة السابقة في جهاز الموساد الاستخباراتي -غولدا مائير- الجديدة "تسيبي ليفني"، وزيرة خارجية "إسرائيل" أثناء حرب غزّة، حيث زعمت:"أنا لا أكره أطفال غزّة. أنا حزينة لما يجري لهم - فحماس تتّخذ منهم دروعاً لها في حربها"!

أما رئيس وزراء العدوّ "إيهود أولمرت"، فادّعى لصحيفة "معاريف" حينها أنه بكى عندما شاهد أباً فلسطينياً" يعرض أطفاله الثلاثة المقتولين على وسائل الإعلام!

وللدلالة على بشاعة ما يجري تحت عنوان الحرب النفسية، يقول الكاتب الأمريكي من أصلٍ عربي، جيمس زغبي، في دراسةٍ له نشر موجزها موقع المركز الدولي لدراسات أمريكا والغرب، تحت عنوان (آلة الحرب الدعائية الإسرائيلية)، أن "إسرائيل" تخوض حرباً دعائية بنفس قوّة العدوان على الأرض".

ويحدّد زغبي خطواتٍ عدّة لآلة الدعاية الإسرائيلية، تمّ الإعتماد عليها في حرب غزّة الأخيرة:

- الصور النمطية؛ أي التأكيد على "إنسانية" إسرائيل ومعاناة الشعب اليهودي.

- اللعب على أخطاء الخصم؛ عبر استغلال إطلاق أيّ صاروخٍ من قِبل حماس لتبرير عدوانٍ مدبّر مسبقاً.

- عدم إعطاء الفرصة للخصم، وذلك من خلال تكاتف الكونغرس والبيت الأبيض مع المتحدّثين باسم "إسرائيل"، في التعبير عن وجهة نظرٍ واحدة. أي الرّبط بين الحملة الإعلامية والمواقف السياسية.

- إنكار ماكينة الدعاية "الإسرائيلية" الحقائق في قتل الفلسطينيين والتذرّع بحججٍ واهيةٍ مفادها أن الفلسطينيين" جعلونا نفعل ذلك".

- التذرّع بـ مقولة "معاداة السامية"، بحيث أن أيّ إنتقادٍ لـ"إسرائيل" يصبح بمثابة إجهارٍ بمعاداة السامية.

الإنترنت واليوتيوب

لم تقتصر الحرب الدعائية النفسية الإسرائيلية على وسائل الإعلام المكتوبة والمرئية. بل تعدّتها إلى الفضاء الإلكتروني، حيث اندلعت جبهات متنوّعة بين نشطاء الإنترنت العرب من جهة، ونشطاء المواقع الصهيونية من جهةٍ أخرى.

هذه الحرب الكلامية الفضائية، نجح في جزءٍ منها العدوّ، حيث كسب ودّ وتعاطف قسمٍ من الرأي العام الغربي عبر سيلٍ من الأكاذيب والأضاليل المدروسة -مخاطبته باللغة الإنكليزية- فيما نجح العرب في المدوّنات الإنكليزية، مثل نشر صورٍ تقارن بين ما "حدث لليهود على أيدي النازي" وما ارتكبه "اليهودي" في غزّة من جرائم أكبر وأفظع. وقد نالت هذه المدوّنات تعاطف بعض الغربيين مع أهالي غزّة.

ولم يقتصر الأمر عند هذه الحدود، بل تمّ إنشاء محطّة فيديو خاصّة على موقع "اليوتيوب"، هدفها إثبات أن من يقتلهم الجيش الصهيوني هم من مقاتلي حماس وليس من المدنيين الأبرياء.

وفي هذا السياق، نشير إلى شريط الفيديو الذي عرِض على شاشات التلفزة لأشخاصٍ يحملون مواسير هي عبارة عن أنابيب للطهي، وقيل أنها صواريخ القسّام. وقد تمّ تفجير سيّارة هؤلاء فور دخولهم إليها، حيث استشهدوا جميعاً؛ عندها، يقول صوت عسكري صهيوني" لقد تعرّض هؤلاء الإرهابيون للقصف من قِبل جيشنا"!

كذلك، استغلّ "الإسرائيليون" موقع "تويتر" الذي يضمّ حلقاتٍ اجتماعية، والذي استعانت القنصلية "الإسرائيلية" في نيويورك به لتبرير عدوانها على غزّة، عبر محاضراتٍ عدّة. وقد طرِح في إحدى الندوات بالقنصلية من خلال هذا البرنامج الذي يخوّل لمستخدمه التواصل والنقاش مع مستخدمين آخرين، أكثر من 400 سؤال. وتابع النقاش أكثر من 3 آلاف مستخدم للبرنامج، اقتنع الكثير منهم بوجهة النظر الإسرائيلية في الحرب النفسية".

غير أن المعركة التي اعتبِرت الأهمّ منذ انتهاء حرب غزّة، هي المعركة الدبلوماسية، حيث نفى الصهاينة اتهاماتٍ مثبتة من قِبل جمعيات حقوقية بانتهاك الكيان للقانون الدولي واستخدام أسلحةٍ محرّمة دولياً، كالفوسفور الأبيض الفتّاك.

وضمن التحرّك الدبلوماسي الإسرائيلي المضادّ، جاءت استضافة ستّة زعماء أوروبيين في "إسرائيل" لاستغلال تبريرهم "الحرب على الإرهاب"، على اعتبار أن الجرائم الصهيونية ما هي سوى وسيلة للدفاع المشروع عن النفس! من هنا أيضاً يُفهم منع نشر أسماء وصور ورتب العسكريين والضبّاط الصهاينة الذين شاركوا في حرب غزّة ومنعهم من السفر، خوفاً من صدور أوامر اعتقالٍ دوليةٍ ضدّهم، مع إمكانية محاكمتهم بتهم ارتكاب جرائم حرب.

مرآة القاتل:

كما هو معروف، فإن الحديث عن "إسرائيل" يقود تلقائياً للحديث عن

أمريكا. فهما "دولتان" مستنسختان الواحدة عن الأخرى، من حيث المبادئ والأهداف والوسائل غير المشروعة لتنفيذ أهدافهما في كلّ الأمكنة والأزمنة.

والمقام لا يتّسع لشرحٍ مسهبٍ حول تدخّلات أمريكا وإسرائيل في معظم دول العالم، وشنّهما حروباً نفسية واقتصادية وسياسية وعسكرية على تلك الدول؛ وعمليات ترهيب الشعوب بزرع الفتن داخل مجتمعاتها، وتمويل الجماعات الإرهابية لقلب الأنظمة، مع التظاهر بمحاربة هذه الجماعات الإرهابية، أكثر من أن تُحصى في هذا المجال، حيث نشهد كلّ يومٍ عبر شاشات التلفزة تجلّيات هذا السيناريو الأمريكي-الإسرائيلي البشع في أكثر من دولةٍ وبلد.

ولكن، لا بدّ من إلقاء نظرةٍ ولو عابرة في الحرب النفسية -الحربية المنسّقة بين أمريكا و"إسرائيل". ففي العراق مثلاً، تموّل جماعاتٌ منظّمةٌ تحت عناوين كثيرة لخلق الفوضى وزرع القتل والموت في هذا البلد المنكوب؛ وهكذا الحال في باكستان وأفغانستان وغيرها. فالسيناريو هو نفسه لا يتغيّر، وإن تغيّرت أسماء العاملين فيه.

معركة متعدّدة الأبعاد ضدّ إيران

تخوض هذه المعركة وكالات استخباراتٍ متعدّدة ومختلفة، مستهدفة كلّ ما يحيط بأيّ عملٍ مقاوم. وفي هذا، نذكر موافقة الكونغرس الأميركي في شهر تشرين الثاني 2009 على إقرار ميزانية بقيمة 55 مليون دولار في سياق تمويل "الحرب الناعمة" ضدّ إيران الإسلام؛ والتي تستهدف بشكلٍ

خاصٍ البيئة المحيطة بالمقاومة وبإيران، بحسب تقريرٍ وضعه الرئيس السابق لوحدة الأبحاث في شعبة الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية العميد احتياط "يوسي كوبرفاسر"، في نشرة مركز دراسات الأمن القومي الصادرة في آب 2009.

وتتصاعد الحملة الأميركية-الصهيونية ضدّ الجمهورية الإسلامية الإيرانية يوماً بعد يوم، وتشتدّ حدّتها، لاسيّما في فترة ما بعد الانتخابات الإيرانية التي أوصلت الرئيس أحمدي نجاد إلى سدّة الحكم للمرّة الثانية. هذا الرئيس الذي يشكّل سداً منيعاً في وجه المخطّطات الغربية. وقد عملت الولايات المتحدة بشكلٍ حثيثٍ لإضعاف السلطة الإيرانية، فزرعت العملاء في الشوارع وبين الناس، محاولة زعزعة الاستقرار الأمني والاجتماعي للإيرانيين بهدف دفعهم للانقلاب على السلطة.

غير أن كلّ هذه الحسابات سقطت، رغم الأحداث الدامية التي شهدتها إيران في تلك الفترة. ولم تستطع أمريكا ولا إسرائيل اختراق جدار التعلّق الشعبي بقيادة البلد وخيارها الممانع للإمبريالية الغربية المتصهينة.

وقد ثبت، في الإطار نفسه، تورّط أمريكا في اختطاف الجنرال الإيراني "علي رضا عسكري"، الذي عمل حتى العام 2005 كنائبٍ لوزير الدفاع، وكان من أقوى الجنرالات في الحرس الثوري الإيراني. وفي نفس السياق، تمّ اغتيال العالم النووي" مسعود محمّدي، في قلب طهران، بتاريخ 12 كانون الثاني 2010.

وفي إطار الحرب النفسية التي تقودها واشنطن ضدّ طهران، جاء إنتاج الفيلم الأمريكي (300) الذي يتناول انكسار آلاف الجنود الفرس مقابل 300 جندي يوناني كانوا يدافعون عن مدينتهم، في معركةٍ دامية. وهذا الفيلم يُعتبر في إيران جزءاً من سلسلة جهودٍ كثيرةٍ لتقويض أركان الجمهورية الإسلامية التي دخلت في مواجهةٍ مفتوحةٍ مع الغرب بسبب برنامجها النووي السلمي.

ولا يقتصر دور واشنطن على شنّ حربٍ نفسيةٍ ضدّ إيران في داخل البلاد، بل يتعدّاه إلى معظم دول العالم، حيث تجيّش الولايات المتحدة حملاتٍ واسعة ضدّ الجمهورية الإسلامية، وتتّهمها بنشر "الإرهاب" في العالم لإضعاف أنظمة الدول؛ في حين تُعتبر هذه الجماعات بالأساس أدواتٍ أمريكية، تدرّبت بأيدي صهيونية مجرمة، وموّلت من دولٍ عربيةٍ أو إسلامية معروفة.

وقد سعت واشنطن -في عهد بوش الإبن خصوصاً- للضغط على إيران بكافّة السبل بهدف إسقاطها، مستعينة بتهمٍ مختلفة، منها: التدخّل الإيراني في شؤون العراق، تأجيج العنف الطائفي في البلاد، دعم العمليات العسكرية ضدّ القوّات الأمريكية، دعم حزب الله في لبنان، دعم بعض الفصائل الفلسطينية المقاومة التي تصفها واشنطن بالإرهاب، ومعارضة العملية السلمية" في المنطقة. وهي تقصد بذلك إقامة سلامٍ دائمٍ مع إسرائيل بالشروط الإسرائيلية والأمريكية فحسب!

ملامح من الحرب النفسية الإسرائيلية على غزة

ظهرت ملامح الحرب النفسية على غزة منذ بدء العملية العسكرية الإسرائيلية الوحشية. وفيما يلي، ملامح عدّة لهذه الحرب:

1 - الإسم الذي اختير لهذه العملية هو "الرصاص المسكوب"؛ أي الرصاص الساخن الذي يؤلم ويُحرق.

2 - إعلان قادة "إسرائيل" ووسائل إعلامها بأن الحرب على غزة ليست موجّهة ضدّ الفلسطينيين، ولكن ضدّ حماس، و"نحن نقدّم خدمة "للمعتدلين العرب" (الكلام لـ"أولمرت" في 29/1/2009). وخطورة هذا الكلام في أنه يمزّق الجسد الفلسطيني الواحد من جهة، ويعمّق الخلافات العربية والعربية-الفلسطينية، من جهةٍ أخرى.

3 - إعلان العدوّ بأن "العملية" ستطول لأيامٍ عدّة حتى تطال عمق المدن، وأن الخطوات القادمة ستكون ضدّ محافظة خان يونس. وقد اختير لهذه العملية اسم "الوردة الحمراء". أمّا من كان يغذّي تلك الشائعات، فهو بلا شكٍ طابور العملاء الخامس.

4 - ضرب المساجد وتدمير المستودعات الغذائية والدوائية، وبعض المدارس والمستشفيات، وقتل عددٍ من رجال الإسعاف والصحافة، مما يُفهِم الناس أن لا خطوط حمراء لدى "إسرائيل"، التي ستواصل حربها ضدّهم بلا هوادة!

5 - العمل على إرباك الفلسطينيين وتشتيت أفكارهم وخياراتهم ودفعهم باتجاه الاستسلام، باستخدام أسلوب الصّدمة من الضربة الأولى، والتي نتج عنها سقوط العشرات من الشهداء وتدمير مقرّات حكومية ومؤسسات مدنية في قطاع غزة، ممّا يشيع سطوة وقوّة العدوّ بين الناس.

6 - المنشورات الداعية إلى الخضوع والاستسلام، بهدف بثّ الرّعب في قلوب المدنيين وتحريضهم على المقاومة، التي هي -حسب إعلام العدوّ- سبب دمارهم وخرابهم. واللافت أن هذه المنشورات كانت تحمل أرقاماً لهواتف خليوية من أجل التبليغ عن المقاومين الفلسطينيين؛ كما كانت مذيّلة بعباراتٍ وحِكم مثل "الحماية أفضل وقاية"!

7 - تكثيف الجولات الدبلوماسية إلى خارج من قِبل قادة العدوّ، قبيل الحرب، وأثناءها، لكسب التأييد العالمي والحصول على غطاءٍ دوليٍ لما يحصل من مجازر في غزة.

8 - الإعلان بين فترةٍ وأخرى عن وقف إطلاق النار من طرفٍ واحد، بما يوحي أن لـ"إسرائيل" الحقّ في متابعة عدوانها متى أرادت، وكأنّها هي التي اختارت وقف إطلاق النار وليس صمود المقاومة الذي دفعها لهذا الخيار؛ وهذا الأسلوب يهدف للسيطرة على عقول الغزّيين في إطار الحرب النفسية.

9 - القيام بعمليات قرصنةٍ على الإذاعات وبثّ بياناتٍ تحرّض على المقاومة وتدعو إلى الاستسلام، وقطع التيّار الكهربائي وضرب محوّلات الطاقة، لمنع الأخبار عن الناس وجعلهم يعيشون في الظلام بُغية زيادة معاناتهم الاجتماعية والنفسية.

10 - التركيز في نشرات الأخبار الإسرائيلية على الصور التي تخدم مصالح العدوّ؛ كبثّ صورة لشاحنات مساعداتٍ إسرائيليةٍ للفلسطينيين، ووقف العمليات الحربية لفترة 3 ساعات يومياً من أجل مساعدة الناس على

التموين أو الخروج من منازلهم. ولكنّ الحقيقة هي أن موعد الساعات الثلاث غالباً ما كان يُخرق بقصف الطيران الحربي، وهذا ما شهدناه في حيّ القرارة في خان يونس، حيث استهدفت الطائرات الإسرائيلية ثلاثة أطفال أثناء لعبهم في الشارع العام في موعد الهدنة (الساعات الثلاث المعلنة).

11 - التضليل الدبلوماسي، وكان في أوجه خلال زيارة مبعوث الرئيس الأمريكي أوباما إلى الشرق الأوسط " في شهر حزيران 2009؛ حيث أذيع بأنه يوجد اتفاقٌ بين "إسرائيل" والسلطة الفلسطينية على قضية توسيع المستوطنات؛ وأن "إسرائيل" ستزيل 600 وحدة استيطانية غير مشروعة في الضفة الغربية؛ وكأنّ هناك استيطاناً مشروعاً وآخر غير مشروع!

12 - نشر روح السلام لدى الجمهور الإسرائيلي ودفع تعويضاتٍ فوريةٍ للمتضرّرين من جرّاء الحرب؛ وذلك لامتصاص غضبهم والتخلّي عن فكرة الهجرة المعاكسة من فلسطين إلى خارجها، لاسيّما إلى البلاد الأوروبية.

13 - إصدار فتاوى من قِبل الحاخامات العسكريين تُجيز قتل الأطفال والنساء والشيوخ، وإجازة القتال يوم السبت، الذي هو بمثابة يومٍ مقدّسٍ عند اليهود (صحيفة هآرتس 27/1/2009).

السينما الإسرائيلية في خدمة الحرب النفسية للعدوّ

قبل إنشاء الكيان

منذ انعقاد مؤتمر بال في سويسرا عام 1897، بدأت الحركة الصهيونية التخطيط العملي للدور الذي يمكن أن تقوم في السينما؛ سواء الدعائية أو التسجيلية، من أجل إثبات جملة أكاذيب وأضاليل صنعتها هذه الحركة بيديها، كأحقيّة "اليهود في أرض فلسطين"، و"الهولوكوست"، و"أرض الأجداد"، وأرض اللبن والعسل", وخرافاتٍ لا حدود لها، ولا يمكن للعقل أن يتصوّرها. وكلّ ذلك من أجل كسب التأييد والعطف الإنساني للقضايا اليهودية في العالم والحصول على صكّ براءةٍ مطلقٍ لكافّة الجرائم التي قامت وتقوم بها الحركة الصهيونية، سواء داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة أو خارجها.

وقد تركّز التخطيط الصهيوني عند إنتاج الأفلام السينمائية على متطلّبات المراحل الزمنية التي يمرّ بها الصراع العربي-الإسرائيلي، وذلك لخدمة أهداف كلّ مرحلة، على امتداد أكثر من نصف قرن...

وقد انقسمت السينما الإسرائيلية قبل إنشاء "إسرائيل" إلى قسمين:

الأوّل: الأفلام التي أُنتِجت عقب مؤتمر بازل وحتى إعلان وعد بلفور المشئوم.

الثاني: الأفلام التي تمّ إنتاجها منذ وعد بلفور وحتى عام 1948، حيث تمّ الإعلان عن قيام دولة "إسرائيل" رسمياً.

في القسم الأوّل: تضمّنت الأفلام تعبيراً واضحاً عن محاولاتٍ حثيثةٍ لغزو الفكر العالمي وصبغ الفكر الصهيوني بالطابع الإنساني، مع شرح الجذور والصلات الدينية والتاريخية التي تربط اليهود بفلسطين. وقد استخدِمت التوراة كمصدرٍ رئيسيٍ في آليّة تزييف الحقّ والدين، باعتبار أن (التوراة اليهودية) هي كتب سيّدنا موسى التي تحتوي على شرائعه وتعاليمه.

غير أن العلماء المعاصرين أكّدوا أن هذه "التوراة" ليست هي الأصلية، وأن لا علاقة للنبي موسى بها، ممّا يعني بأن اليهودية هي ديانة كهنوتيةٍ عنصرية ظاهرياً، وباطنياً هي مليئة بالخرافات والأساطير التي ألّفها البشر، ويستحيل أن تتأتّى من مصدرٍ إلهي.

ومن أهمّ الأفلام التي عملت على تزييف الدين، الفيلم الروائي "حياة اليهود في أرض الميعاد"، الذي أخرجه يعقوب بن دوف عام 1912، حيث برزت مجموعة من المزاعم الصهيونية تتحدّث حول صلة اليهود بفلسطين، من خلال قصّة التجمّع اليهودي في أرض الميعاد" والاحتفال باستقبال يهود الشتات!

أما في القسم الثاني، فقد كان الطابع الدعائي سمة تلك المرحلة للأفلام الإسرائيلية، حيث الدعوات إلى "الوطن القومي لليهود" وضرورة تخفيف عذاباتهم وآلامهم نتيجة الهولوكوست". أما أهمّ الأفلام التي ظهرت حينها، فهي:

يهودا المحرّرة 1918، أرض (إسرائيل) المحرّرة عام 1919، عودة

صهيون 1921، عشر سنوات من تاريخ إحياء شعب "إسرائيل" في أرضه عام 1927، "الربيع في أرض "إسرائيل" عام 1928. (لاحظ المحور الذي تدور حوله هذه الأفلام، الأرض والشعب).

بعد هذه الفترة، توالت الأفلام الوثائقية القصيرة التي كانت على شكل دعايةٍ صهيونيةٍ للاستيطان الزراعي. ومن هذه الأفلام:

- عوديد التائه، 1932/إخراج حاييم هلتمي.
- صابرا، 1933/إخراج الكسندر فورد.
- هذه هي البلاد، عام 1935/إخراج باروخ أجداتي.
- إلى حياةٍ جديدة، أنتج عام 1935/إخراج يهودا ليمان.
- نبوءة وواقع، 1937/إخراج ناثان إكسلورد.
- فوق الخرائب، 1938/إخراج ناثان إكسلورد.
- صوت من قريب، 1939/إخراج ناثان إكسلورد.
- بيتٌ في الصحراء، 1947/إخراج بن عويز رمان.
- الأرض، عام 1947/إخراج هيرمل لارسكي.

في هذه الأفلام، تتناقض صورة الإنسان العربي مع صورة اليهودي. فالفلسطيني هو إمّا كسول، أو مسن أو أبله، يستخدم وسائل بدائية في الزراعة ويتمّ توجيه الإهانات له كونه يُهمِل "الأرض المقدّسة". أما اليهودي، فهو المتحضّر الذي جاء من أرض الحضارة، وأحضر معه علوم وثقافات تلك الحضارات الأوروبية والأمريكية. وفي مقابل شخصية الفلسطيني الضعيفة،

تبرز شخصية الشبّان اليهود الممتلئين حيوية ونشاط، وهم يسيرون معاً نحو الحقول حيث يزرعون الأرض. هذا التناقض في الشخصيتين الفلسطينية واليهودية تجذّر في الضمير الغربي ليشمل كلا الطرفين في العالم.

بعد إنشاء الكيان (1948-2004)

كما رأينا، فإن السينما الإسرائيلية واكبت كلّ حقبةٍ زمنيةٍ كانت تمرّ بها بما يخدم أهداف الحركة الصهيونية في أيّ مرحلةٍ كانت. وقد اعتمدت السينما الإسرائيلية على الحروب العربية-الصهيونية لإنتاج أفلامها في مرحلة ما بعد العام 1948.

ويُعتبر تاريخ أيّ حربٍ من تلك الحروب بداية مرحلةٍ جديدةٍ في تاريخ هذه السينما.

المرحلة الأولى 1955-1948:

معظم الأفلام التي شهدتها تلك الفترة كانت تحمل مفاهيم صهيونية تتمحور حول استقلال "إسرائيل" عن الاحتلال البريطاني وانتصار القوّات الصهيونية على القوّات العربية، وإظهار أن المستوطنين هم أبطال قوميّون انتصروا في تلك الحرب (1948).

كما حملت هذه الأفلام أهدافاً أخرى، مثل تمجيد الوجود البطولي اليهودي مقابل السخرية من جماعات العرب، "البدو والقرويين" الذين تنقصهم الخبرات القتالية والحضارة والمدنية", ودائماً حسب هذه الأفلام التي كانت تمرّر نظرية "العرب امتدادٌ للنازية الألمانية".

أما أبرز أفلام تلك المرحلة، فهي كالتالي:

- لا تخيفونا، الذي أنتِج عام 1948، وهو من إخراج مائير ليفني. ويدور موضوع الفيلم حول "ميجا" اليهودي الذي التقى "سارة" وتزوّجها بعد أن هربت من النازيين في ألمانيا.

- بيت أبي، أنتِج عام 1949، وهو من إخراج هربرت كلاين، وموضوعه يتحدّث عن دافيد هالبين "يهودي نجا من معسكرات الإبادة النازية في ألمانيا، وهاجر إلى أرض الوطن".

- اللعنة-البركة: أخرجه هيرمل لارسكي عام 1950، ويتناول قصّة زوجين في العشرينيات قتِلا في ألمانيا أثناء الإبادة النازية"، حيث يحاول إبنهما البحث عن جذوره في "الحلم الموعود إسرائيل".

- التل 24 لا يردّ، أخرجه ثورولد ديكنسون عام 1954. أمّا أحداثه، فهي تدور بين مقاتلين أربعة: إيرلندي، أمريكي، يهودي، وإمرأة يمنية يهودية تعطيهم الأوامر للدفاع عن موقعٍ استراتيجيٍ على طريق القدس. وهناك، يروي الممثّلون قصص حياتهم.

هذا الفيلم يقارن بين "العدوّ العربي" والنازية من جهة، و"إنسانية الإسرائيلي" من جهةٍ أخرى. فالإسرائيلي، مثلاً، يروي أنه هاجر إلى فلسطين من إحدى الدول الأوروبية؛ وأثناء حرب 1948 ألقي القبض على جنديٍ مصريٍ جريحٍ في صحراء النقب، ليكتشف لاحقاً أن هذا الجندي هو نازيٌ قديم (اعترف له الجندي بذلك قبل موته)؛ وقد مات وهو يعلن كرهه لليهود. أما في ختام الفيلم، فيُقتل الأربعة (إظهار تضحية اليهود في سبيل أرض الأجداد-

حسب زعمهم)، ويعلن ممثّل الأمم المتحدة أن التلّ تابعٌ لـ"إسرائيل"، لأن المرأة كانت تحمل علم "إسرائيل" حين موتها!

المرحلة الثانية: 1956-1966

اتسمت تلك الأفلام بالدعائية المأساوية –المزعومة-اليهودية، وبإعادة شائعات الهولوكوست إلى أذهان البشرية (هي شائعات غاطسة تطفو كلّما دعت الحاجة) من أجل كسب التعاطف العالمي.

ويلاحظ أن أفلام هذه المرحلة اختلفت نوعاً ما عن أفلام المرحلة التي سبقت؛ فهي لم تتناول "الانتصارات" الإسرائيلية على العرب رغم العدوان الثلاثي على مصر 1956 وما حقّقه من مكاسب للصهاينة. والسبب في ذلك؛ أن العدوان الثلاثي كان استعمارياً واضحاً، وكان تحالفاً عسكرياً لثلاث دول على مصر؛ أي أنه لم يعد نصراً عسكرياً إسرائيلياً، بما تعنيه الكلمة. لذا، لم يتمّ تناوله في السينما الصهيونية، خاصّة وأن مصر كانت قد حقّقت نتيجة هذا العدوان انتصاراً سياسياً كبيراً.

أما أهمّ أفلام هذه المرحلة فكانت:

- الشمس تصعد إلى الأفق، أنتِج عام 1960، وأخرجه أوفا برومبرجا، وتدور أحداثه حول قصّة حبٍ جمعت بين فتاةٍ إسرائيليةٍ وشابٍ ألمانيٍ أمّه يهودية. و ترفض أمّ الفتاة تزويج ابنتها لهذا الشاب كي لا يذكّرها بعذابات النازية (لاحظ إشاعة الهولوكوست الغاطسة التي تفيض حسب الظروف).

- المخبأ، من إجراج ناثان جروس عام 1962، وهو يحكي قصّة حارس

مبنى إسرائيلي ممّن نجوا من معسكرات النازية، يعود إلى المخبأ الذي كان يحتمي فيه خلال الأيام الصعبة، ويحاول الانتقام لأنه لا يستطيع التخلّص من آلام الماضي.

- ثمانية بعد واحد، من إخراج مناحم جولان عام 1946، ويتناول قصّة أطفال إسرائيليون يشكّون في طبيب المستعمرة على أنه جاسوسٌ عربيٌّ، فيعرّضون أنفسهم للخطر من أجل كشفه وحماية المستعمرة.

- في وادي الحضارة، أخرجه ألكسندر راماتي وأنتِج للسينما عام 1964. يدور سيناريو الفيلم حول سائق سيّارة يضلّ طريق عودته إلى إحدى المستوطنات الإسرائيلية، فيجد مصاباً داخل الصحراء أصابه لغمٌ أرضيٌّ زرعه الفلسطينيون. يعمل السائق على نقل المصاب إلى إحدى القرى القريبة، وهي عربية. ويعتني كبير هذه القرية، وهو الشيخ داوود، بالمصاب. ثمّ يظهِر الفيلم أن من زرع العبوة هو سليم ابن الشيخ المذكور. يبدو واضحاً مغزى الفيلم؛ فالعربي الجيّد هو الجاهل المسنّ القروي. أما الشاب، فهو إرهابي ينهب اليهود ويقتلهم، مقابل صورة الإسرائيلي الذي يتجنّد في القوّات العسكرية فقط للدفاع عن نفسه، بسبب كراهية العرب لليهود"، وهو "لا يحبّ القتال، بل يفضّل جلب الحضارة إلى الشرق المتخلّف"!

- ليلة في طبرية، وهو من إنتاج فرنسي-إسرائيلي مشترك عام 1965؛ يتناول الفيلم شخصية مهندس فرنسي يأتي إلى "إسرائيل" للإشراف على إحدى المؤسسات، وطالب ألماني أمّه يهودية، حيث ترفض أمّ الفتاة تزويج ابنتها لهذا الشاب، كي لا يذكّرها بعذابات الهولوكوست.

المرحلة الثالثة: 1972-1967

في هذه المرحلة، كثّفت إسرائيل من استغلالها لسلاح السينما في حربها النفسية الدعائية الموجّهة في أكثر من اتجاه؛ خاصّة وأنه بعد العام 1967 لم تعد تنطلي على أحد أكذوبة "إسرائيل الصغيرة المسالمة التي تعيش وسط محيطٍ عربيٍ قوي".

ففي ذلك العام، استولت "إسرائيل" على أراضي ثلاث دولٍ عربية لتظهر كقوّة قهرٍ واحتلال وليست الدولة "المغلوب على أمرها". ومع تصاعد نشاط حركة المقاومة الفلسطينية على الساحة، برزت حاجة صهيونية لتظهير صورة جديدة للشخصية الفلسطينية تختلف عن الصورة التقليدية التي ابتدعتها لفترةٍ طويلة؛ بل كان لا بدّ من تشويهٍ منظّمٍ لصورة الفلسطيني لإثبات أن حركة مقاومته هي حركة إرهابية لتخريب الأمن الإسرائيلي وتهديد سلام المنطقة.

في المقابل، ظهرت الأفلام التي تركّز على قوّة "جيش الدفاع الإسرائيلي" و"الجيش الذي لا يُقهر" و"الذي دخل الحرب مُرغماً من أجل السلام"، لتحلّ مكان الأفلام التقليدية التي كانت تدعو يهود الشتات للعودة إلى "أرض الميعاد".

ومن أهمّ أفلام تلك الحقبة، فيلم ثلاثة أيام وطفل، الذي أُنتِج عام 1967 وأخرج على يد أوري زوهار. وقد عُرِض في مهرجان "كان" السينمائي الدولي عام 1967، وفاز ممثّله الأوّل أوددكوتلر بجائزة أفضل ممثّل، في تعبيرٍ واضحٍ من لجنة التحكيم عن تأييد "إسرائيل".

أما موضوع الفيلم، فكان يعالج أزمة روحيّة يعيشها شابٌ يسكن في القدس العربية ويبحث عن الحبّ والصداقة.

بعد ذلك بسنة، أي في العام 1968، أنتج الفيلم الإسرائيلي "مويشا"، وهو أيضاً من إخراج أوري زوهار. و"مويشا" هو جندي يثير السخرية بسبب كفاحه ضدّ الإسراف في الجيش؛ ومن ثمّ يتحوّل إلى بطل بعد أن يكتشف جاسوساً عربياً.

- معركة سيناء، وهو فيلم من إنتاج إيطالي-إسرائيلي مشترك. أخرجه للسينما مورتيز لوتشيدي، وهو يتناول قضية ثمانية جنود "إسرائيليين" يحاصرون في سيناء؛ وبينما هم على حافّة الموت، يتمكّن واحدٌ منهم من إصلاح جهاز الإتصال الذي عطّلته المدفعية المصرية بمساعدةٍ فلسطينية. من خلال هذا الجهاز، يعلم أن "إسرائيل" انتصرت في الحرب؛ ثمّ يتمّ إنقاذه ورفاقه من الموت على يد "القوّات الإسرائيلية".

- سيناء، وهو من إنتاج 1970، وإخراج آيلير آلدو، يتناول معركة سيناء وكيف أن مجموعة إسرائيلية صغيرة استطاعت تحطيم قدراتٍ مصريةٍ كبيرة. يركّز الفيلم على الخسائر البشرية الهائلة في القوّات المصرية مقابل عدم وقوع خسائر بشرية ضمن تلك المجموعة.

- أزيت، أنتِج هذا الفيلم العام 1972، وأخرجه للسينما بوعز ديفيد سون. وأزيت هي كلبة شجاعة كانت لديها مغامرات خارقة مع القوّات الإسرائيلية ضدّ "الإرهابيين العرب". ولا يحتاج الأمر إلى تعليق؛ فالعرب

هنا لم يعودوا "غوييم" -حسب مزاعم الصهاينة- وهي تعني حيوانات؛ بل هم أدنى من ذلك.

المرحلة الرابعة: 1981-1973

هذه المرحلة أتت بعد انتصار حرب أكتوبر 1973، حيث تحطّمت أسطورة الجيش الصهيوني الذي لا يُقهر. وهنا أدرك المنتِجون والمخرِجون الصهاينة عدم جدوى الاستمرار في نمط الأفلام السابقة، والتخبّط في مفردات الإنتروبولوجيا الصهيونية. بل وجدوا ضرورة اصطناع قصصٍ تحاكي الواقع الجديد، لاسيّما وأن نصر 1973 العربي شكّل صدمة عنيفة للمجتمع الإسرائيلي الغارق في نشوة 1967.

وكان أن ظهر في هذه الفترة حركة (السلام الآن) التي ضمّت عدداً من المثقّفين الذين حاولوا البحث عن أسباب الفشل عام 1973؛ فقدّم هؤلاء سينما مختلفة تهاجم وتعترض على فلسفة العنف في بُنية الحكم الصهيوني؛ إضافة إلى أفلامٍ تصوّر حالات العجز والضياع الإسرائيلي. وهذه السينما، وإن لم تأت كنقيضٍ للسينما الإسرائيلية السابقة، إلاّ أنها حاولت تحسين صورة الصهيونية في مواجهة تأييدٍ كبيرٍ للثورة الفلسطينية، وإجماعٍ دوليٍ على انسحاب القوّات الإسرائيلية من الأراضي المحتلة بعد عام 1967.

وعلى رغم التباين بين السينما بعد حرب 1973 وما قبلها، غير أنه من الضروري الإشارة إلى أن الأفلام السينمائية بعد 1973 كانت لا ترفض أبداً وجود "إسرائيل"؛ بل كانت تحاول أن تمرّر رسالة إلى مهرجانات العالم

السينمائية التي تشارك فيها، ومغزاها أن "إسرائيل" هي دولة الحرّيات والديموقراطية.

أما أهمّ أفلام هذه المرحلة، فهو فيلم "إسرائيلية تشهد"، الذي أنتِج عام 1974، من إخراج "أدنا بوليتي"؛ وهو يصوّر واقع حياة الفلسطينيين تحت الاحتلال الذي يمارس أقسى أنواع التعذيب والقمع الفكري والجسدي ضدّهم، ويستولي على الأراضي الفلسطينية ويستغلّ الأيدي العاملة الفلسطينية (هدفه إظهار ديموقراطية إسرائيل عبر السماح بعرض هذا الفيلم).

- عملية رجال الصاعقة، من إخراج مناحم جولان 1977. يتناول هذا الفيلم قصّة الطائرة الإسرائيلية (إلعال) التي اختطفها فدائيون فلسطينيون، وكيف أغارت القوّات الإسرائيلية الخاصّة على مطار عنتيبي بأوغندا لإطلاق سراح ركّاب الطائرة.

- فيلم الكفاح من أجل الأرض، أو فلسطين في "إسرائيل"، وهو من إخراج ماريو أوفنبرج وإنتاج العام 1977. تدور أحداث الفيلم حول الأرض والتهجير وقرىً ثلاث: (صفّورية) في الخليل (وعرعرة) في المثلّث و(تل أبيب). وتبرز شهادات حيّة لفلسطينيين هجّروا من ديارهم وكيف احتلّت إسرائيل أراضيهم في صفّورية وعرعرة ومنعتهم من العودة إليها. أما تل أبيب، فقد أقيمت على أنقاض قرية (كروم جبالي) العربية التي دمّرتها قوّات الاحتلال وأعادت بناءها بعد أن طردت كلّ سكّانها منها.

- سكّان الغريب؛ في هذا الفيلم، يجول المخرج رودولف فان دنبرج في

شوارع القدس والضفة الغربية، ويُلقي الضّوء على سيّاراتٍ عسكريةٍ تجوب الشوارع ومجموعات جنود منتشرة في الطرقات؛ ثمّ يدخل إلى أحد المخيّمات الفلسطينية، حيث يدور حوارٌ بين إمرأتين فلسطينيتين حول الرّغبة في البقاء في هذه الأرض التي هي لهم، وليس هناك من وطنٍ بديلٍ آخر.

- الخماسين، أنتِج عام 1981، على يد المخرج دانييل فايتسمان. يتناول هذا الفيلم حكاية خالد، الشّاب الفلسطيني الذي يعمل في مزرعةٍ يملكها شاب "إسرائيلي" ويقيم فيها مع أمّه وشقيقته. وتتوالى الأحداث لتصل إلى ممارسة خالد الجنس مع شقيقة الإسرائيلي الذي يقتله بصورةٍ وحشية (إظهار عدم "أخلاقية العربي"). وينتهي الفيلم بتساقط الأمطار التي تمحو الجريمة وتُنهي موسم الرّياح الخماسينية العاصفة.

المرحلة الخامسة: 1982-2004

بعد توقيع المعاهدة المصرية-الإسرائيلية في مارس/آذار 1979، والتي نصّت فقرتها الثالثة على تطبيع العلاقات بين الطرفين لاسيّما الثقافية منها، بدأ اليسار الإسرائيلي يصنع أفلاماً تعترف نسبياً بالفلسطينيين وبالكيان الفلسطيني في ظلّ سلطةٍ صهيونية. وقد اعتبرت الصحافة الفلسطينية أن هذه النظرة الجديدة، هي خدعة دعائية من قِبل "إسرائيل". والواقع أن هدف هذه الأفلام الأساسي كان تحسين صورة "إسرائيل" التي بدأت تتوضّح ملامحها الاستعمارية شيئاً فشيئاً لدى الرأي العام العالمي؛ وإظهارها كدولةٍ تجيز حرّية التعبير لمثقّفيها.

والسؤال هنا: هل أن الديموقراطية والاحتلال ينسجمان؟ بالطبع لا. يقول

الصحافي اليهودي السوري الأصل، والإسرائيلي الجنسية "أنطوان شماسي" في كتابه "إسرائيل على مشارف القرن الحادي والعشرين): "إن دولة إسرائيل اليوم ليست دولة ديموقراطية حتى بالنسبة لليهود أنفسهم، حيث أن الاحتلال والديموقراطية لا يلتقيان".

بعد حرب العام 1982، والاحتلال الصهيوني الغاشم للبنان، تولّد شعورٌ عميقٌ داخل الكيان برغبة الهروب من كابوس الحروب. وبدأت تتسرّب المشاعر المعبّرة عن رفض الموت والتمرّد على السلطة من جهة، والاستمرار في دعم هذه السلطة التي لا تسأم الحروب من جهةٍ أخرى؛ حيث ظهر تناقضٌ فكريٌّ شديدٌ لدى جموع المثقّفين بين الأنا "الإسرائيلية" وبين الآخر. وفي وسط هذه الأزمة، تزايد عمل المجموعة العربية داخل الكنيست الإسرائيلي للحفاظ على الهوية الفلسطينية والقومية العربية للشعب الفلسطيني. حينها تمّ توقيع اتفاق أوسلو (1993)؛ ولكن تأجّل تنفيذه نتيجة ضغوطٍ مورست على ياسر عرفات، مع إعطائه مجموعة من الوعود الاقتصادية بزيادة المنح والمساعدات للفلسطينيين. فصنِعت أفلام تلك المرحلة من منظور اليسار (الإشكناز)، لاسيّما حركة (السلام الآن) وحركة (جيل السلام)، و(الشرق من أجل السلام). وهي تطرّقت إلى المشاكل الغرامية بين الفلسطينيين والنساء الإسرائيليات؛ إضافة إلى محاولة خلق محاور للحوار بين الطرفين من أجل تحقيق تعايشٍ "سلمي" بينهما!

ومن هذه الأفلام:

- يوميّات حملة، إنتاج 1980 وإخراج أموس جيتاي. يصّور هذا الفيلم

التصدّي الفلسطيني للممارسات "الإسرائيلية" اليومية وصلابة الصمود الفلسطيني.

- وراء القضبان؛ يطرح هذا الفيلم الذي أنتِج العام 1984، ومن إخراج أوري بارباش، موضوع الصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين من جهة، وبين السفاراديم والإشكنازيم الصهاينة من جهةٍ أخرى.

- جسر ضيّق جداً؛ يتحدّث الفيلم عن علاقةٍ تربط بين امرأة مسيحية فلسطينية والمدّعي العام العسكري الإسرائيلي في مدينة رام الله. وقد أخرجه للسينما نسيم ديان عام 1985.

- إبتسامة الحمل. أنتج في العام 1986 هذا الفيلم على يد المخرج شمعون دوثان. وهو يصوّر المشكلة التي تنشأ في ظروفٍ معيّنةٍ بين فلسطيني ضحية وإسرائيلي يمثل سلطة الاحتلال.

يتناول اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحاق رابين في نوفمبر 1995 ومسرح الجريمة، وسلسلة حواراتٍ بين نماذج مختارة بدقّة، وتمثّل أجيالاً مختلفة.

- سجلّ اختفاء، 1996، من إخراج إيليا سليمان. وهذا الفيلم يُعتبر حدثاً في تاريخ الإنتاج السينمائي "الإسرائيلي" لكون مخرجه فلسطينياً. غير أن قصّة الفيلم تُعتبر غير واقعية لأنها تناقض الواقع المعاش داخل الأراضي المحتلة؛ ولا غرابة في ذلك؛ فقد تمّ إنتاج هذا الفيلم من الأموال الحكومية الإسرائيلية، وعرِض على شاشات العرض في "إسرائيل"، وشارك في مهرجانات فينيسيا وقرطاج.

تشويه صورة العربي

لم تترك الحركة الصهيونية وقادتها أيّ مجال من مجالات الحياة العملية والسياسية والحزبية والتعليمية والثقافية إلاّ ووظّفته في سياق حربها النفسية المثيرة للإشمئزاز؛ على جميع الصعد الذاتية الداخلية أو الفلسطينية العربية أو حتى الغربية.

وإذا كانت صورة الإنسان العربي الفلسطيني في السينما الإسرائيلية لم تختلف عمّا هي عليه في المفهوم السياسي لهذه الشخصية؛ إلاّ أنه، أيضاً، لم يسجّل لهذه السينما الدعائية الصهيونية تقديمها أيّ تصورٍ مستقبليٍ للعلاقات بين اليهود والفلسطينيين في محاولةٍ منها لطمس الهوية العربية الفلسطينية، وتجاهل حقوق الشعب الفلسطيني. بل أكثر من ذلك، فقد تمّ التعامل مع الشخصية الفلسطينية على أنها هامشيةٌ في المجتمع الإسرائيلي، ويجب التخلّص منها كونها أدنى من الشخصية الإسرائيلية. وإذا كان مخرجو السينما الإسرائيلية قد تعمّدوا تحقير الشخصية العربية، فهذا لا يعني أنهم على حقٍ أبداً؛ بل إن ما يدخل في صميم ما عانوا داخل المجتمعات الأوروبية من تحطيمٍ وانزواء؛ فكان لا بدّ لهم من تحقير الآخر (نظرية التشبّه بالمعتدي ... راجع مقدّمة الدراسة)، كي يقمعوا الخوف الذي يعشعش داخلهم، لأنهم يعلمون جيّداً أن صاحب الحقّ لن يسكت على حقّه وسيطالب به حتى آخر العمر.

سبل ووسائل مواجهة الحرب النفسية الإسرائيلية

1) في مجال الحرب النفسية

- التشبّث بالإرادة والعزيمة والقوّة بهدفٍ منع الحرب النفسية الإسرائيلية من تحقيق أهدافها بكافّة السّبل. وقد ثبت في حرب تمّوز 2006 كيف أن إرادة الصمود اللبناني أربكت العدوّ الإسرائيلي في شتّى الميادين.

- قلب المعادلة رأساً على عقب، عبر شنّ حربٍ نفسيةٍ مضادّةٍ باتجاه العدوّ، بحيث يجتاح الخوف شعبه ويربكه ويضعف ثقته بنفسه وبقدراته وبمعتقداته.

- تكليف كادرٍ موثوقٍ بتشكيل حلقةٍ دائريةٍ إعلاميةٍ مغلقة، مهمّتها التخصّص في أدوات ووسائل الدعاية والإعلام النفسي، وبالتالي السياسي والعسكري.

- التنبّه إلى مسألة التوقيت في أيّ حربٍ نفسيّة، لأن الوقت المناسب يفيد جداً في تحقيق الهدف.

- التعلّق بثقافتنا الإسلامية، والاستناد إلى المدرسة القرآنية أو الإلهية التي هي مُلهمة الأجيال في مجمل تحرّكنا الاجتماعي والديني والعملي والجهادي.

- معالجة نقاط الضعف في أيّة مواجهةٍ مقبلةٍ مع العدوّ، والاستفادة من الأخطاء لفهمٍ أوسع وأعمق للتجربة المخاضة، وعدم التخبّط في مفرداتٍ لا تقدّم جديداً (ليت ويجب).

- إسترجاع ذاكرة حرب تموز 2006 والاستلهام من عبرها، والتفكّر دائماً كيف أنه، وبالتوكّل على الله والإيمان بدور المقاومة والتمسّك بالأرض، استطاعت قلّة مجاهدة أن تهزم أعتى قوّةٍ في المنطقة. وكيف أن شعباً أعزلاً رفض الاستسلام – رغم الظروف القاسية من تهجيرٍ وقصفٍ وتدمير- وتمسّك بقادته، فانقلب السحر على الساحر، حيث شهدنا كمّ ونوع الرسائل العاطفية الجيّاشة الصادقة التي كانت تظهر عبر وسائل الإعلام وشاشات التلفزة، والتي تحيّي المقاومة وقائدها سماحة السيّد حسن نصرالله، وتؤكّد على فدائه هو والمقاومة بالأرواح والأنفس والممتلكات. وكلّ ذلك بسبب صدق وأمانة وإخلاص هذه المقاومة وسيّدها. ومن هنا تأتي أهمية التشبّث بقرارات القادة، لاسيّما في أوقات الحروب.

- ضرورة التيقّظ والانتباه لكلّ ما يجري حولنا، ثقافياً أو اجتماعياً أو نفسياً، وأهمية أن نكون "العين الساهرة" التي تحمي الوطن من "وطاويط" الليل.

- التيقّن من القدرات العسكرية والإيمانية لدينا، والتدبّر في آيات الله التي يعِد فيها المؤمنين بالنصر، وعدم الخوف، والتوكّل على العليّ القدير وهو نعم الوكيل.

- إعداد شبكة تخصّصية في الإعلام النفسي الفضائي، تعمل عبر شبكات النت، لتوضّح أمام الرأي العام العالمي والإقليمي، وحتى المحلّي، حقائق الصراع العربي- الإسرائيلي، مع استخدام تسجيلات الفيديو عبر مواقع اليوتيوب أو غيره، كي يرى العالم بشاعة الجرائم الصهيونية بحقّ العرب والمسلمين.

- إعداد وتحديث برامج مختصّة، سياسية وفكرية واجتماعية، تُبرز للرأي العام وجوب تحقيق وحدة ميدانية في الموقف العربي والإسلامي تجاه الخطر الصهيوني المستشري.

2) في مجالي التربية والإعلام

إن مواجهة ناجحة لأيّ حربٍ نفسيةٍ تتطلّب استخدام وسائل فاعلة، أبرزها:

- مكافحة الجماعات الإرهابية الداخلية، أو ما يسمّى بـ"الطابور الخامس". وهذه جماعاتٌ تجسّسيةٌ تمّ تجنيدها من قِبل العدوّ من أجل زرع الفتن داخل مجتمعاتنا؛ إن عبر استخدام الإشاعات والأراجيف لإثارة الفزع بين صفوف المواطنين وتحريك النعرات الطائفية، أو عبر القيام بأعمالٍ تخريبية (وضع عبوات/ اغتيالات ...). والتأكّد من معاقبة هذه الجماعات بشكلٍ فاعلٍ وعلني ممّا يحدِث أثراً نفسياً رادعاً لكلّ من تخوّل له نفسه القيام بهكذا أفعالٍ مشينة.

- ضرورة تحقيق تعاونٍ استراتيجيٍ عربيٍ-إسلامي موحّدٍ في مجال الإعلام، لشنّ حربٍ نفسيةٍ مقارعة للحرب الإسرائيلية، تكشف أكاذيب وأضاليل "إسرائيل" وتعرّي رغباتها الكاذبة حول إقامة سلامٍ مع أيّ دولةٍ عربية، لأن ذلك يتناقض مع أيديولوجيتها التوسّعية الاستيطانية.

- تجييش مدارسنا ومؤسّساتنا التربوية، ووضع سياسةٍ تربويةٍ فعّالةٍ تكشف خطط الاحتلال ومحاولاته المتكرّرة من أجل سرقة أراضينا ومياهنا، والسيطرة على بلادنا.

- تذكيرٌ دائمٌ بالمجازر الصهيونية، عبر التحدّث عنها في وسائل الإعلام أو المدارس أو الحسينيّات...

- إدراك أهمّية التفوّق في مجال الحرب النفسية، وأن تكون الحرب الثقافية من أبرز أساليب الحرب النفسية دفاعاً عن مبادئنا وقيمنا الإسلامية والعربية.

- وضع مناهج توعيةٍ شاملةٍ تستهدف تنمية الشعور بالمسؤولية لدى المواطنين، مع توضيحٍ دقيقٍ للدور الخطير الذي تقوم به للمجموعات المعادية المتصهينة.

- وضع سياسةٍ إعلاميةٍ وطنيةٍ موحّدةٍ للشعب، ونزع أيّ فتيلٍ قد يؤدّي إلى تنافرٍ بين أبناء الوطن الواحد، لأن المجتمعات الموحّدة لا تشكّل أبداً أرضاً خصبة للعدوّ ولحربه النفسية.

- تجنيد علماء النفس والاجتماع، وتكثيف إطلالاتهم الإعلامية، وتقنين طرق ووسائل حرب العدوّ النفسية، وطرح هذه الطرق عبر وسائل الإعلام حيث تستفيد أكبر شريحةٍ اجتماعية منها.

- إعتماد الإعلام الصادق الذي يكتسب ثقة المواطن، فلا يعود بحاجةٍ إلى مشاهدة إعلامٍ آخر، لاسيّما إعلام العدوّ الذي قد يحجب الصورة الحقيقية لأيّ موضوع.

- التفنّن في المشاهدات الإعلامية، كما حال قناة "المنار" التي قابلت مشاهد صمود اللبنانيين أثناء حرب تموز 2006 بصور ومشاهد الخوف والهلع من قِبل الإسرائيليين.

- إعتماد "الفلاشّات" الذكية التي تتناقض مع تصريحات أصحابها ومطلِقيها.

خاتمة:

هناك حقيقةٌ واضحةٌ يجب أن يعرفها الجميع، وهي أن أيّ نجاح مستقبلي لدولة العدوّ في حربها النفسية الشعواء ضدّ العرب والمسلمين لا يمكن أن يتحقّق أبداً. لقد عرفنا جيّداً طبيعة هذا الكيان وكيفية التعامل المناسب معه.

هذا العدوّ، وإن كان يملك قدراتٍ عسكرية هائلة، إلاّ أنه ليس أقوى منّا على الإطلاق. وقد أثبتت تجارب عام 2000 و2006 في لبنان، وفي غزة عام 2009 ذلك؛ وما نملكه نحن، بالإضافة إلى القدرات العسكرية -التي أصبحت قوّة لا يُستهان بها- من معتقداتٍ وإيمانٍ وإرادةٍ وعزم، أقوى بكثيرٍ من موروثاتٍ يهوديةٍ خرافيةٍ لا أساس لها.

ويبدو جلياً أنه لا بدّ من حلّ الخلافات العربية-العربية وكلّ الخلافات الداخلية، والتفرّغ لأعمالٍ ونشاطاتٍ تساعدنا في مواجهة العدوّ الغاصب.

هذه الأعمال تشمل التخطيط، التنفيذ، المتابعة والتقدّم، ورصد الميزانيات، من أجل حماية الإنسان العربي والمسلم في ماضيه، وفي حاضره ومستقبله، لأن الثروة البشرية هي من أهمّ الثروات لدينا.

وختاماً، هناك مسألة يجب الالتفات إليها، بضرورة الحذر الشديد من

التعامل مع ما يسمّى بـ "حركات السلام" في إسرائيل، وإجراء تقويمٍ دقيقٍ لطرقها التي تظهِر بأنها لا تفرّق بين اليهودي والفلسطيني. فهذه الحركات مرتبطةٌ بما اتفقت على تسميته "صهيونية الحدّ الأدنى"؛ كما أن قضايا الأمن "الإسرائيلي" لديها لا تختلف عن سائر قضايا القوى الصهيونية اليمينية، لاسيّما نظرية "القوّة النووية الإسرائيلية"؛ بالإضافة إلى أن هذه الحركات تؤكّد على مبدأ القدس كعاصمةٍ أبديةٍ لـ"إسرائيل".

إن المطلوب هو عدم الانسياق وراء نظرياتٍ ملغومةٍ تتحدّث عن السلام وإقامة علاقاتٍ طبيعيةٍ مع العرب، في حين أن عمليات القتل والتدمير والاغتيال والاستيطان كلّها شواهد ملموسة على طبيعة هذا الكيان ومخطّطاته التوسّعية التي لن تفشل وتنتهي إلاّ عبر الجهاد والمقاومة.

كما لا بدّ أن نتذكّر دائماً حقيقة أن لبنان لم يعد يحتمل مقولة "قوّته في ضعفه" بعد الآن، لأنه هزم الكيان الصهيوني في حربين متتاليتين على المستوى العسكري والإعلامي والنفسي؛ وهو قادرٌ بإذن الله أن يهزمه في أية عمليةٍ عدوانيةٍ محتملة. وتبقى عبارة أخيرة تلخّص كلّ الحكاية:

"إسرائيل" ليست قدراً لا يُقهر؛ وهي فعلاً أوهن من بيت العنكبوت.

المصادر والمراجع:

-1	مجلّة لندن ريفيو أوف بوكس London Review of Box29/1/2009 ,
-2	فهمي هويدي (الحرب النفسية ضدّ الأمّة).
-3	مجلّة لوموند دبلوماتيك LeMonde Diplomatic ,March2009
-4	د. محمّد السيّد سليم (الحرب على غزّة أو العدوان بالمصطلحات)
-5	الموقع الإلكتروني للمركز الدولي لدراسات أمريكا والغرب/جيمس زغبي (آلة الحرب الدعائية)
-6	الموقع الإلكتروني إسلام أون لاين.
-7	موقع المقاتل الإلكتروني.
-8	موقع Filkaa الإسرائيلي.
-9	أمنية سالم (حرب نفسية إسرائيلية جديدة).
-10	جريدة القدس 20/3/2010.
-11	عوّاد الأسطل: سياسة التحطيم النفسي في الضفة الغربية وقطاع غزة ... هالة إسبانيولي (الأيديولوجيا الصهيونية وانعكاساتها في كتب التدريس العبرية ... مقالة).

-12	مجلّة قضايا إسرائيلية، الصادرة عن المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، خريف 2001.
-13	مجلّة شؤون فلسطينية.
-14	مجلّة قضايا إسرائيلية، صيف 2001.
-15	مجلّة قضايا إسرائيلية، العدد 30/2008.
-16	محاضرة «يطلقون النار ويبكون» للكاتبة Davis Uval Naira، ألقتها في جامعة شرق لندن (2008).
-17	إيلي فودة، النزاع الإسرائيلي-العربي في مرآة كتب تدريس التاريخ والمدنيات في العبرية. Semitism-anti Zionist (1998 june) 1 .Levidow www.ariga.com
-18	د. م محمّد الحسين إسماعيل (البعد الديني في الصراع العربي-الإسرائيلي).
-19	تقارير الأمم المتحدة بشأن الصراع العربي-الإسرائيلي، موقعٍ خاصٍ بمراجع الصراع العربي-الإسرائيلي.
-20	د.حسن طوالبة (فيالق الإعلام في الحرب النفسية)
-21	د. رشاد عبدالله الشامي (إشكالية الهوية في إسرائيل)، سلسلة عالم المعرفة-الكويت1997.
-22	سمير فريد (الصراع العربي-الصهيوني في السينما- 1992).
-23	علي نبوي عبد العزيز (السينما الصهيونية: أقنعة القتل- 1998).